منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (3309) السنة الثانية عشرة - الأربعاء (11) آذار 2015

WWW. almadasupplements.com

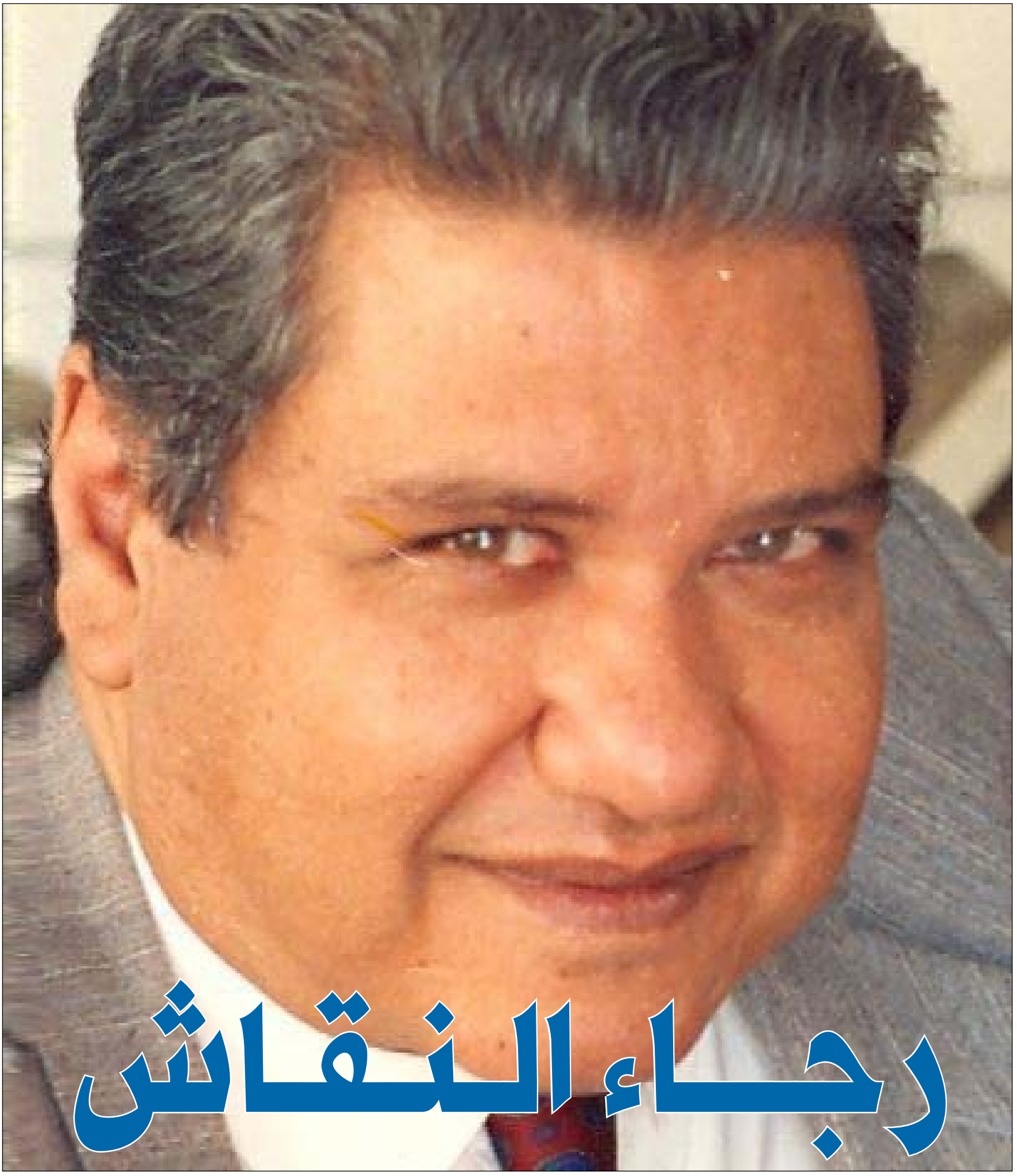

رجاء النقاش

دمعة حزن على الصديق رجاء النقاش

سيار الجميل

رحل الصديق الرائع رجاء النقّاش، وهو في قمة العطاء.. اشتهر فقيدنا بكتابته الذكية التي تفتح الشهية، وتشرح النفس، وتزهر الحياة بلا قوالب جامدة.. رحل ورحل معه قلمه الجميل الذي كان يضيئ بوهجه حياتنا الكالحة.. رحل عنّا الانسان الذي احبه الجميع من الاعماق.. رحل عنّا ذلك الفكر المنصف الذي كان يكافح ويشعل على امتداد خمسين سنة شموعا على طول الطريق العربي، فقد عاش ورحل وهو عاشق للعرب والعروبة.. رحل الرجل الذي كان اسمه مثيرا للجدل دوما سواء بنقاداته او بموضوعاته او بمعالجاته ومجادلاته.. وقلما جمع مثقف عربي كل الاضداد كما جمعها رجاء بكل حيويته، واتقاد روحه، وانفتاح فكره، واسلوب قلمه.. كان يؤمن بمقولة للأديب الروسي تشيكوف، ويعمل بها، تلم التي تقول: "إن كان في وسعك أن تحب، ففي وسعك أن تفعل أي شيء".

رجاء النقاش من القليوبية المصرية شمالا التي ولد فيها ١٩٣٤، والمشتهرة بطيبة اهلها، ودماثتهم، وحسن معشرهم، وبحثهم عن الحرية اينما وجدت.. حمل شهادة اللغة العربية وآدابها في جامعة القاهرة ١٩٥٤، وطفقت مهارته في النقد الادبي، فنشر في عدة مجلات وغدت الصحافة الادبية بالنسبة اليه، عالمه الثمين.. تولى تحرير مجلة (الهلال) العريقة بعد ان لمع دوره عند مطلع السبعينيات، ثم حرر مجلة (الاذاعة والتلفزيون) وازدهرت على يديه. ولبى نداء دعوة دولة قطر، فحرر صحيفة (الراية)، ثم تولّى تحرير مجلة (الدوحة) الشهيرة عام ١٩٨١ حتى اغلاقها عام ١٩٨٦، وعاد الى مصر يكتب في (المصور) حتى توليه تحرير (الكواكب) ابان التسعينيات حتى تفرغ في سنواته الاخيرة للكتابة في (الاهرام). ونال النقاش جائزة الدولة التقديرية بمصر عام ٢٠٠٠، وكرّم في كانون الثاني ٢٠٠٧ في حفل بنقابة الصحفيين بالقاهرة حيث نال درع النقابة ودرع مؤسسة (دار الهلال) ودرع حزب التجمع.

كنت قد كتبت عنه فصلة في كتابي (نسوة ورجال: ذكريات شاهد الرؤية) التي نشرت قبل سنوات في مجلة (الاسرة العصرية) التي كانت تصدرها مؤسسة البيان الاماراتية، بعدها هاتفني الرجل من القاهرة، واسترسل مستعيدا كل الذكريات الخصبة، وشكرني وكان مهموما بمشكلة العراق.. نعم، قلت في شاهد الرؤية: رجاء.. الانسان والاديب مثقف، عصري النزعة، واديب فكه العبارة، وناقد مبرز، وكاتب ماهر، ومحرر بارع للصحافة الادبية يتميز باسلوبه السهل الممتنع.. مسهب في كتاباته عرفته وقد جمع صفتين، فهو سهل وممتنع في آن واحد.. كان دبلوماسي التفكير وله حيوية مفرطة في العمل.. يمتلك قدرة في نقد الاشياء بعد معرفتها جيدا واختراق هياكلها وتمييز الوانها واشكالها واحجامها عن كل محتوياتها ومضامينها وكل نصوصها..

رجاء مثقف حقيقي من جيل عشق الكلمة، وتربّى في واقع له تنوعاته وقيمه وافكاره الحرة.. ولعل ما يميزه التصاق مشاعره مع متطلبات اهله وشعبه.. تمتع بنزعة قيادية في التفكير الادبي والنقدي والتحرير الصحفي الشهري ويبدو انه يمزج مرونته الشخصية التي تبدو واضحة من ملامح وجهه المعبّرة عن الطيبة والوداعة، واشتهر بابتسامته التي تبدو لي شخصيا مرآة لدواخل الرجل الطيبة واعماقه البيضاء، ومن ابرز اعماله التي قرأتها عن كثب: نجيب محفوظ: صفحات من مذكراته، وكتاب: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، وكتاب: الانجليون في مصر، وكتاب: أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، وكتاب: ثورة الفقراء، وكتاب: في أضواء المسرح،، وكتاب: ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء.. كما واستوقفتني كتابه عن الشيخ المراغي، والأخر لغز لم كلثوم وكتابه شخصيات وتجارب وغيرها من الاعمال المبدعة. لقد وجدت ان رجاء له منهجه البارع في التأليف، فهو يتبنى موضوعه بكل احاسيسه.. انه يعشقه عشقا كبيرا حتى يخرجه على الناس.. ويبقى يلازمه طويلا.

كتب لي مرة في واحدة من رسائله تعليقا على مقالة كتبتها في نقد فكرة وشعار كانا قد راجا ابان الثمانينيات، فلم يجازف في نشرها، قائلا بأن"اسبابا قاهرة خارجة عن ارادتي حالت ونشرها دون تفصيل مني!!" عند ذاك، ادركت كم كانت معاناته. لقد تلقيت قبل اكثر من ٢٥ سنة رسالة رائعة من رجاء النقاش وبخط يده وكعادته في استخدامه قلم الحبر الازرق، ولم أزل احتفظ بها بين مقتنياتي الشخصية لأعتزازي بها جدا.. اذ كان واحدا من الذين منحوني شهادة تشجيعية بالغة التأثير. ومرت السنوات سريعة عندما التقيت برجاء في واحد من المؤتمرات العربية.. ولم نكن قد التقينا من قبل.. جلست قبالته رفقة الصديق الاستاذ المحامي الكاتب اللبناني جوزيف (جهاد) فاضل الذي كان يجري حوارا معي، وكان رجاء يختلس النظرات الي بعد ان يتيه بصره من دون ان يعرف من اكون.. وفجأة سأله جهاد: اتعرف من يكون جليسنا يا رجاء؟ ابتسم من دون ان يعرف وهو يهز رأسه بالنفي، فقال له: انه فلان.. فهبّ رجاء يسلم علي سلاما حارا وتعانقنا وكأننا كمن غاب عن احدنا عن الاخر دهرا طويلا.. جلسنا طويلا وتبادلنا الحديث في شؤون العرب الثقافية ومجلة الدوحة الراحلة وعن مصر الكنانة ونجيب محفوظ.. تواعدنا على امل نلتقي في وقت قريب، ومضت سنوات طوال مرت على الامة فكانت الحوادث خطيرة والاهوال بليغة!

واشهد انه كان يتابعني وهو بمصر. وكنت اتابع بين الحين والاخر مقالات واعمال وكتب الاخ رجاء النقاش على صفحات مجلات وصحف عربية ومصرية، وخصوصا مجلة الوطن العربي او مجلة الهلال وغيرهما.. ولقد فرحت جدا قبل ايام لمناسبة حفل تكريمه من قبل الهلال.. رحم الله الفقيد العزيز، فلقد اثرى مكتبتنا العربية بأهم الاعمال. لقد خسرت الثقافة العربية واحدا من ابرز كتّابها ونقادها الاقويماء من ابناء القرن العشرين. وكلمة عزاء لكل اهله واصدقائه.. ويكفيهم فخرا ان الرجل قد غرس اثره في اعماق ثقافتنا، وسيبقى اسمه ورسمه مع تداول الايام.

الثلاثة الكبار الذين اكتشفهم رجاء النقاش

أحمد عبدالمعطي حجازي

محمود درويش

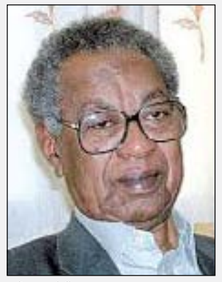

الطيب صالح

شعري ومقدمة رجاء مشروع مشترك أحمد عبدالمعطي حجازي

من المؤكد أن مقدمة رجاء النقاش لديواني الأول مدينة بلا قلب هي التي قدمتني لقراء الشعر، فأنا مدين لها بالكثير، لكن بوسعي أيضا أن أقول إن رجاء النقاش مدين لهذه المقدمة بما يساوي ديني لها. فهي التي قدمته لقراء الشعر وقراء الأدب كناقد مثقف قادر علي التقاط الملامح الجوهرية المميزة وتفسير ما فيها من جمال وكسب ثقة القارئ وإقناعه بما يقول.

نعم، رجاء النقاش ناقد حقيقي. والناقد الحقيقي هو الذي يستطيع أن يتسلل إلي داخل النص ويعرف كيف تشكل. الناقد الحقيقي هو الذي يتقمص شخصية الكاتب أو الشاعر ويتمثله لحظة إبداعه ليعرف كيف أنشأ ما كتب أو ما نظم، ومن المؤسف حقا أن يختفي هذا الصنف من النقاد وأن يتكأكأ علينا من يعجزون عن الاقتراب من الشعر والانفعال به والتغلغل في متاهاته.

لكن رجاء النقاش لم يقتصر دوره في ديواني الأول علي كتابة مقدمة له. لقد نظمت معظم قصائد الديوان بعد أن تعرفت عليه وتوثقت صلتي به. قصيدة واحدة في الديوان أو قصيدتان نظمتا قبل أن ألقاه أول مرة في أواخر عام١٩٥٥، يوم ذهبت إلي قهوة عبدالله في ميدان الجيزة لأقدم نفسي للناقد أنور المعداوي، الذي كانت ندوته في القهوة تنعقد كل مساء بحضور مجموعة من أصدقائه ومريديه، منهم رجاء الذي لم أكن قرأت له أو سمعت عنه من قبل، وبقدر ما ظلت علاقتي بمعظم أعضاء الندوة محصورة في الندوة، تحولت علاقتي برجاء فتجاوزت حدود الندوة وأصبح لقاؤنا اليومي أساسا في تلك المرحلة الحاسمة من حياتي.

كنت في العشرين من عمري قادما لتوي من ريف الوجه البحري أبحث عن عمل في صحافة القاهرة، بعد أن نشرت لي بعض المجلات عددا من قصائدي الأولي، وكان هو في الحادية والعشرين يطلب اللغة العربية وآدابها في جامعة القاهرة ويراسل مجلة الآداب البيروتية.

ولأشك أن مواهب رجاء لفتت إليه بعض الأنظار، لكنه حين التقينا كان لايزال بعيدا عن دائرة الضوء. وكنت أكثر بعدا وإن كانت قصائدي الأولي قد لفتت إلي أنا الآخر بعض الأنظار. في تلك اللحظة صرنا صديقين حميمين، أكتب القصيدة فيكون أول قارئ لها، ويكتب الرسالة فأقرأها وأقرأ ما بين السطور.

لقد كتبت إذن ديواني الأول في دفء هذه الصداقة. وفي هذا الديوان قصيدة عنه، وأخري مهداة إليه. وهو إذن لم يكن مجرد كاتب مقدمة لهذا الديوان، وتلك حقيقة يلمسها قارئ المقدمة، إذ يجد أن الناقد قد تقمص روح الشاعر وتكلم بلسانه. من هنا أقول إن ديواني الأول بمقدمته كان مشروعا مشتركا للشاعر والناقد معا. كان شعرا جديدا، وكان بيانا شعريا جديدا.

في هذه المقدمة التي تقع في أكثر من ثمانين صفحة شخص رجاء عالمي الشعري بوصفه تعبيرا رمزيا عن مرحلة فاصلة في تاريخنا الحديث. ويمكنني أن أشبه الدور الذي لعبته هذه المقدمة في حركة تجديد الشعر العربي، بالدور الذي لعبته مقدمة ورذزورث لديوانه الأقاصيص الشعرية في الحركة الرومانتيكية الانجليزية، ومقدمة فيكتور هيجو لمسرحية كرومويل في المسرح الفرنسي الرومانتيكي.

من الحب القاسي إلي نقيضه القاسي محمود درويش

تحتفظ الذاكرة بما تنتقي، وكالنقش في الحجر تبقي مجموعة الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي الشعرية الأولي مدينة بلا قلب جزءا من ذاكرتي الشعرية فيها تعرفت إلي شعر جديد طازج لا يشبه شعرا آخر. وفيها ايضا تعرفت إلي قراءة نقدية سخية الاحتفاء بهذا الشعر الجديد المبهر: هي المقدمة الاحتفالية التي كتبها ناقد جديد هو رجاء النقاش.

من هذه المقدمة العلامة في العلاقة بين حركة الشعر العربي الحديث وقراءته الحديثة، بدأت علاقتي برجاء النقاش. عن بعد شفاف أتابع كتاباته بشغف المتعطش إلي الاطلاع علي مشهد الأدب العربي الجديد، حيث أقام رجاء النقاش مرصدا للتبشير والاحتفاء بالمواهب الشابة، وكصياد لؤلؤ ثاقب، احتفل رجاء برائعة الطيب صالح موسم الهجرة إلي الشمال التي شغلت جزءا من ذاكرتي الروائية.

قبل أربعين عاما، عندما كنت شابا خاضعا للاقامة الاجبارية في مدينة حيفا.. لم أتخيل أن شبكة رجاء النقاش ستعثر علي وعلي زملائي، وتنتشلنا من عتمة العزلة والحصار. كان يمكن لي أن أفرح بمقالة تنبئ القارئ العزيز بأن هناك خلف الأسوار شعبا أسيرا فيه شباب يكتبون شعرا مختلفا عما سبقته هزيمة يونيو١٩٦٧ من احباط عام للشعر والشعراء في العالم العربي الجريح.

لكن رجاء النقاش فاجأني بأنه كرس لي كتابا كاملا ابهجني وأحرجني، ابهجني لأنه أسهم مع غسان كنفاني ويوسف الخطيب في فك الحصار عن اسمي الشعري المبتدئ.

وأحرجني لأنه لم يخضع محاولاتي الشعرية الأولي لمعايير النقد العامة، ومنحني من الكرم الأدبي ما قد يعيقني عن تطوير موهبة الشك الذاتي فيما أكتب.

أنذذ صارت لظاهرة شعر المقاومة حصانة أخلاقية تضفي علي الشعر الفلسطيني وبلا تمييز احدي صفات القداسة، وتحرم النقد من التعامل مع مستواه الجمالي. كان ذلك حبا. فان الكثيرين من العرب قد وجدوا في الظاهرة الفلسطينية الصاعدة تعويضا معنويا عن هزيمة يونيو.

وأنذذ كتبت: أنقذونا من هذا الحب القاسي. لكن هذا الحب القاسي كان في حاجة إلي وقت أطول ليشفي من عاطفته المتأججة، فامتد بي الأجل لأري أن الشاعر الفلسطيني الذي تحرر من الحب القاسي، قد تعرض للمقدار ذاته من الكره القاسي، ربما لأن علي الفلسطيني أن يبقي موضوعا للشفقة لا ذاتا تنتج وتبدع، وصار ينظر إلي الشاعر الفلسطيني من ثقب جغرافيته الضيقة فما دامت بلاده صغيرة فان أفقه الشعري ضيق.

لكن رجاء النقاش كان من أكبر المدافعين عن حقنا في النمو، حتي لو كانت بلادنا أصغر من حارة في مدينة كبيرة.

في رثاء رجاء النقاش الطيب صالح

الخسارة في غياب رجاء النقاش، لم تكن لمصر وحدها. إنها خسارة عظيمة للعالم العربي كله، ذلك لأن رجاء النقاش، رحمه الله، كان من الكتاب العرب القلائل الذين لم ينظروا إلي الأمور من زاوية ضيقة.

كان يتوخي في كل ما يكتب ايجاد ركائز فكرية ووجدانية مشتركة تدعم قيام روابط أوسع من(الوطن) بحدوده السياسية أو الجغرافية.

كان ذلك أمرا مهما جدا لديه، يحفزه علي ذلك أيضا طبع من السماحة والمروءة والأريحية. وقد ازدادت أهمية هذا الأمر. بعد ما بدا من هزيمة الطموحات السياسية. وهي هزيمة بلغ من قسوتها أنها زعزعت القناعات الوجدانية العميقة الكامنة في ضمير الأمة.

كان رجاء النقاش رحمه الله من أكثر المصريين إدراكا لأهمية دور مصر في تشييد هذه الرابطة الوجدانية الفكرية.

إذا كان دور مصر السياسي كما يبدو قد تعرض للضعف والانحسار، فإن دورها الروحي والفكري قد زاد تماسكا وقوة، وهو دور أجدر بالاستمرار والبقاء.

وقد كان رجاء النقاش يدرك إدراكا عظيما أن قدرة مصر في الاستمرار في دورها الذي حباها به الله في زعامة رابطة الشعوب التي تلتف حولها، أن ذلك يعتمد علي عمق إدراك مصر لأحوال تلك الشعوب.

لذلك كان هو نفسه مهتما بالفعل بأحوال كل بلد عربي. زار أغلب تلك الأقطار، وعاش فترات طويلة في بعضها، وكان يعرف المفكرين والكتاب من سائر البلاد العربية. وقد صار عن جدارة مفكرا(عربيا)، لم يعد مفكرا مصريا فحسب.

ولاشك أن أناسا كثيرين سوف يحزنون علي فقده في سوريا والسودان واليمن والمملكة العربية السعودية وتونس والمغرب وموريتانيا وقطر والكويت ولبنان وسائر البلاد العربية.

سوف يحزن الناس علي فقده في هذه البلاد، ليس أقل مما يحزنون في مصر.

وكان من حسنات رجاء النقاش التي يندر وجودها عند سواه، أن الصلات الفكرية لديه كانت تتحول دائما إلي علاقات شخصية، وكأنه بذلك يضيف عمليا إلي تماسك ذلك البنيان الفكري والروحي الذي يؤمن به.

رحم الله الأخ العزيز والصديق الكريم والإنسان النبيل والمفكر الصادق الحدس الواسع الإدراك، وأسأل الله سبحانه وتعالي أن يحسن عزاء زوجته الفاضلة الدكتورة هانية التي كانت له نعم المعين في حياته وفي مساعيه النبيلة وإلي بقية أفراد أسرته.

في حب رجاء النقاش.. فارس الأدب الجميل

أصدرت مجلة الهلال المصرية العريقة عددا خاصا بعنوان"رجاء النقاش- القلم. الانسان"شارك فيه اكثر من خمسين كاتبا عربيا تحية وتقديرا للناقد المصرى الكبير الذي قدم للأدب العربي والثقافة العربية اسهامات جليلة يندر ان يقدمها شخص واحد، وذلك عبر مايزيد على نصف قرن من العطاء والابداع فى مجالات النقد والادب والصحافة والثقافة.

وما كان ان تفوتني هذه المناسبة الجميلة المعبقة بعطر التقدير والعرفان لكي اكتب فى حب رجاء النقاش، ذلك الفارس النبيل لأدب الزمن الجميل، وللرجل أفضال ادبية شاملة على جيلي كله، وأفضال أدبية بالنسبة لي شخصيا، يهمني هنا أن أكتب عنها.

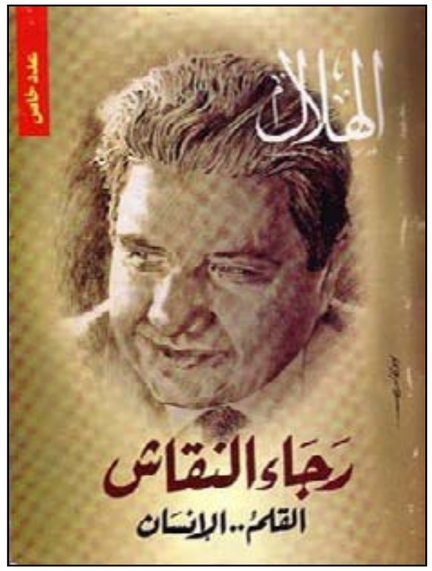

فرانسوا باسيلي
كاتب مصري

النقاش الانسان

كثيرا مايعجب قارئ كتاب او مبدع او شاعر اعجابا شديدا من خلال قراءاته له حتى يقابله ويتعرف عليه فيصدم فيه كشخص وانسان، فكثيرا ما توجد هوة شاسعة بين مايكتب المبدع من أحلام ورؤى شاهقة ويرفع من رايات خافقة ملونة وبين واقع هذا المبدع وأخلاقياته وسلوكه اليومى.

وقد حدث هذا لي في مطلع تعرفي بالوسط الأدبى في مصر وكنت طالبا بجامعة القاهرة في نهايات الستينيات وبدأت في التردد علي مقاهي ريش والاتيلية وغيرها من اماكن تجمع الادباء والشعراء واقتربت من بعضهم شخصيا فكان هذا اللقاء -المفجع وقتها- احد مراحل نضوجي الشخصي واكتسابي لمعرفة الفرق بين مايمكن ان يقوله ويبدعه الانسان وبين مايفعله كل يوم.

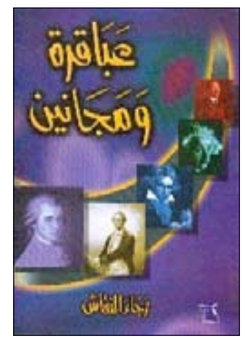

وكان رجاء النقاش من القليلين الذين لم افجع عند الاقتراب منهم، بل علي العكس، فقد كان في شخصه وقوله ومسلكه كما هو في كتاباته، نفس المبادئ النبيلة والمشاعر الجميلة والترفع عن السفاسف والبذاءات اللفظية والفعلية معا. ويمكن ان يلقى لقائي الأول برجاء النقاش ضوءا علي أحد خصال هذا الناقد الادبى الهامة في علاقته بالادباء الناشئين.

فعلي أثر تخرجي من كلية هندسة القاهرة في صيف هزيمة ٦٧ الهائلة بدأت استكشاف الوسط الادبى في مصر، الذي كان يتناقل قصيدة"هوامش علي دفتر النكسة"لنزار قباني الممنوعة في مصر تناولا سريا سحريا، فقد كانت هي المرة الاولي في عمر جيلي - جيل الثورة - التي نقرأ فيها كلمات بها اى نقد للثورة ولزعيمها وللحالة العربية بشكل عام. وفي جو الاحباط العام والانكسار القاتل واليأس الشامل بعد ضربة الحرب السريعة الباطشة. كتبت قصيدة قصيرة جدا وارسلتها لمجلة الهلال في براءة كانت بلاشك وراء جرأتي في ان ارسل للهلال - مرة واحدة - وهي اهم مجلة ثقافية في مصر - منتظرا ان تنشر لي قصيدة وانا لم انشر في اى مكان من قبل! وبعد ذلك بايام عدت الي البيت ذات مساء ليقول لي أبي أن رجاء النقاش إتصل تليفونيا يريدك ان تقابله. وفعلا ذهبت الي مكتبة وانا اكاد اطير من الدهشة المصحوبة بالتوجس من ان يكون الغرض من المقابلة هو تقديم النصيحة المعتادة من ناقد كبير لشاعر ناشئ بأن يستمر في المحاولة والمثابرة لعله يكون من الممكن نشر شئ له في المستقبل.

وحين دخلت الي مكتبه في خجل وتردد قابلني رجاء النقاش بدفئه الانساني الذي لايفارقه مما اراحني كثيرا وكان في مكتبه احمد عبد المعطي حجازي وأعطى النقاش قصيدتي لحجازي قفرأها وأثنى عليها وقال لي النقاش انه سينشر قصيدتي القصيرة قريبا. وفعلا نشرت، وقد كتب النقاش بعد ذلك بما يقرب من ثلاثين عاما عن هذا اللقاء في مقال عنى بجريدة الاهرام بعنوان"الشاعر لايضيع"(١٧ مارس ١٩٩٧) مايلي:

"الشاعر المصري الذي أتحدث عنه اسمه فرانسوا باسيلي وقد تعرفت عليه سنة ١٩٦٩ وكنت ايامها رئيسا لتحرير مجلة"الهلال"الشهرية وفي احد الايام تلقيت رسالة عادية في البريد بها قصيدة وليس معها سوى كلمات معدودة يقدم فيها الشاعر نفسه ويرجو نشر قصيدته وقد اعجبتني القصيدة لبساطتها وعذوبتها وطابعها الانساني الجميل فنشرتها علي ضربة الحرب السريعة الباطشة. كتبت قصيدة قصيرة جدا وارسلتها لمجلة الهلال في براءة كانت بلاشك وراء جرأتي في ان ارسل للهلال - مرة واحدة - وهي اهم مجلة ثقافية في مصر - منتظرا ان تنشر لي قصيدة وانا لم انشر في اى مكان من قبل! وبعد ذلك بايام عدت الي البيت ذات مساء ليقول لي أبي أن رجاء النقاش إتصل تليفونيا يريدك ان تقابله. وفعلا ذهبت الي مكتبة وانا اكاد اطير من الدهشة المصحوبة بالتوجس من ان يكون الغرض من المقابلة هو تقديم النصيحة المعتادة من ناقد كبير لشاعر ناشئ بأن يستمر في المحاولة والمثابرة لعله يكون من الممكن نشر شئ له في المستقبل.

وحين دخلت الي مكتبه في خجل وتردد قابلني رجاء النقاش بدفئه الانساني الذي لايفارقه مما اراحني كثيرا وكان في مكتبه احمد عبد المعطي حجازي وأعطى النقاش قصيدتي لحجازي قفرأها وأثنى عليها وقال لي النقاش انه سينشر قصيدتي القصيرة قريبا. وفعلا نشرت، وقد كتب النقاش بعد ذلك بما يقرب من ثلاثين عاما عن هذا اللقاء في مقال عنى بجريدة الاهرام بعنوان"الشاعر لايضيع"(١٧ مارس ١٩٩٧) مايلي:

"الشاعر المصري الذي أتحدث عنه اسمه فرانسوا باسيلي وقد تعرفت عليه سنة ١٩٦٩ وكنت ايامها رئيسا لتحرير مجلة"الهلال"الشهرية وفي احد الايام تلقيت رسالة عادية في البريد بها قصيدة وليس معها سوى كلمات معدودة يقدم فيها الشاعر نفسه ويرجو نشر قصيدته

عذوبة البساطة

يتميز رجاء النقاش بدفء انساني يلفحك بمجرد اقترابك منه تبثه شخصية مصرية اصيلة تنضح بعذوبة البساطة وعفوية اما رجاء النقاش فقد قدم للأدب العربي عددا كبيرا من الادباء باحتضانه وتشجيعه لهم وتقديم اعمالهم باحتفاء وحماس وبلا قيد او شرط، ومن اشهر هؤلاء محمود درويش وسميح القاسم وقد قدمهما النقاش للعالم العربي باحتفاء خاص باعتبارهما"شعراء المقاومة الفلسطينية"دون ان يهمل التأكيد علي ان احتفاؤه بهم ليس بسبب السياسة او المشاعر الوطنية وانما السبب جدارة اشعارهم وقيمتها الفنية والانسانية وقد اثبتت الايام صدق احساسه الفني.

كما كان له فضل مساندة احمد عبد المعطي حجازى الذي كان له - مع صلاح عبد الصبور - دور ريادى في تغيير الذائقة الشعرية في مصر من الشعر العمودى الي شعر التفعيلة الذي كان يوصف ايامها بـ"الشعر الجديد". ودخل النقاش بهذا في معارك ضارية ضد سدنة الشعر العمودى وقتها مثل عباس العقاد وصالح جودت وغيرهم انتصر فيها فرسان الشعر الجديد في النهاية اذ اصبح هو السائد في مصر والعالم العربي حتى تقدمت قصيدة النثر لتصبح هي السائدة اليوم.

وقد ذكر عدد لأبأس به من الكتاب كيف كان لرجاء النقاش معهم مواقف مشابهة لموقفه معى، فلديه دائما ذلك الاهتمام الشديد بالمواهب الجديدة، يتعامل معها بحنو واحترام ومحبة شخصية وامانة عفوية هي خصال اساسية في طبيعته النقية الجميلة.

النقاش والسلطة

رغم ان نجم النقاش بدأ لمعانه في الستينات بما يكفي لان يعرضه ذلك - كما تعرض كتاب آخرون في ذلك الوقت - الي معتقلات ومضايقات، كما حدث للويس عوض ومحمود امين العالم وغالي شكرى وصنع الله ابراهيم وجمال الغيطاني وغيرهم، الا ان النقاش لم يعتقل مثل غيره. ولعل ذلك كان بسبب عدم انتماء النقاش للفكر اليسارى او الشيوعى، اذ نشأ في بيت اسلامي متدين في اعتدال. ولم تجذبه ايديولوجيات غربية لايسارية ولايمينية.

كما ان ميوله الفكرية ذات طابع ادبى وفنى وانسانى عام لايشكل الفكر السياسى فيها رافدا اساسيا. ولذلك لم يشكل خطرا علي النظام الناصرى. بل علي العكس كان اتجاه الثورة العروبى العلمانى سياسيا المنحاز للتجدد والابداع ثقافيا وفنيا مع الانحياز الاجتماعى للفقراء واولاد البلد في تمسك عام بالاعتزاز بالتراث العربي والكرامة العربية، كانت هذه كلها هي نفسها ميول النقاش الطبيعية، وبذلك لم يكن في حاجة للاصدام مع السلطة ولا الي منافقتها اذ كان متسقا تماما معها.

وقد تغير هذا في عهد السادات اذ انقلب السادات علي هذه الاتجاهات الناصرية وطرد رموز الثقافة من مواقعهم وسلم مقاليد الثقافة المصرية لرموز اليمين السياسى والدينى، ففقد رجاء النقاش رئاسة تحرير الهلال ومنحت الي صالح جودت، فأعادها فجأة الي اكثر من نصف قرن للوراء. وترك النقاش مصر علي اثر ذلك غاضبا حزينا وكتب مقال وداع مؤثر وذهب الي قطر حيث اسس جريدة الراية ومجلة الدوحة وكانت مجلة ثقافية مميزة. وقد كتبت في ذلك الوقت مقالا ناريا بعنوان"نعى مجلة الهلال"نشرته مجلة الاداب اللبنانية في مكان كلمة المحرر وقتها، قمت فيه بتشريح عدد خاص اصدره صالح جودت عن القمر وكان الاتحاد السوفيتى قد اطلق اول صاروخ للقمر واوضحت كيف ان العدد لايمت للعصر بصلة رغم ان موضوعه هو الصاروخ العصرى. اذ لم تظهر به سوى قصائد عمودية بائسة خالية من الشعر - لشعراء لم يكن معظمهم علي قيد الحياة!

وكتب جودت قصيدة يتغزل فيها في القمر وفي حبيبته بأسلوب شعرى قديم مفتعل. ولم اكن ادرى وقتها حتى وانا اكتب"نعى مجلة الهلال"حجم وفداحة الكارثة الثقافية التي حلت بمصر. وكان العنوان الاكثر دقة لمقالي - لو كنت اقرأ الغيب - هو"نعى الثقافة المصرية".. فالذي اثبته الايام هو ان تلك الفترة التي اسلم فيها السادات المجتمع المصرى والثقافة المصرية لقوى اليمين المتزمت كانت هي بداية الانهيار الثقافي الهائل الذي مازلنا نشاهده مستمرا امام اعيننا الي اليوم.

التصاق المبدع بإبداعه

اذا اردنا الخوض في الفلسفة النقدية لرجاء النقاش سنجد ان لها دعامتين اساسيتين. الدعامة الاولي هي اهتمامه بشخصية المبدع قدر اهتمامه بابداعه. فشخصية المبدع وسلوكه وواقعه الحياتى هي محل اهتمام شديد من النقاش، يرى فيها الكثير مما يفسر لديه الاتجاه الابداعى الخاص للمبدع. فيوغل فيها باحثا عن اسرار النشأة والتكوين والبيت والدراسة والعمل والأنشطة السياسية ليأخذ من مصابيحها كلها اضواء تكشف له اسرار العمل الابداعي نفسه. وهناك امثلة عديدة علي اهتمام النقاش بالجوانب الشخصية للمبدعين والكتاب، منها مثلا نشره للرسائل الشخصية المتبادلة بين الناقد المصري انور المعداوى والشاعرة الفلسطينية فدوى طوفان، اعتمد عليها النقاش في تقديم تحليل نفسى لشخصية المعداوى. ويبدو ان للنقاش هنا اهتماما بل هياما كبيرا بفهم الحياة الشخصية للمبدع كمدخل لفهم ابداعه، وربما كان هذا هو سر اهتمامه الزائد بالادباء الشبان والمبدعين المغمورين، فهو لاينظر اليهم فقط كمنتجين لمادة ابداعيه جديدة وواعدة، ولكنه يرى فيهم جوانب مثيرة من جوانب الظاهرة الانسانية نفسها، فكل مبدع هو انسان مميز معقد فريد يستحق ان نستكشف كل مكنونات نفسه ومزاجه وسلوكه وعواطفه وأفكاره حتى نصل الي فهم اعمق لما يبدعه لنا من رواية او قصة او شعر او نقد او فن.

وعلي هذا الضوء تزول الدهشة التي قد تصيبنا لأول وهلة عندما نكتشف ان عددا كبيرا من مؤلفات النقاش تحمل عناوين تتعلق بشخصيات المبدعين اكثر مما تتعلق بإبداعهم. فنجد له العناوين التالية- كمثال:

شخصيات وتجارب/ ملكة تبحث عن عريس/ عباقرة ومجانين/ نساء شكسبير/ لغز ام كلثوم/ في حب نجيب محفوظ/ لويس عوض في الميزان.

في هذه كلها وغيرها يهتم النقاش بشخصية المبدع قدر اهتمامه بإبداعه ذاته ولايفصل كثيرا بين الاثنين. وعليه فيمكن القول ان مدرسة النقاش النقدية هي مدرسة نفسية انسانية واقعية تبحث دائما عن الانسان - والانساني- في العمل الابداعي التي تتصدى لنقده وتحليله، وتقدم هذا البعد الانساني كعامل لاينفصل عن المنتج الابداعي نفسه.

أيديولوجية الإبداع

الدعامة الثانية لمدرسة النقاش النقدية - والتي يمكن رؤيتها نتاجا طبيعيا للدعامة الاولي - هي اهتمامه الشديد بالبعد الايديولوجي للمبدع وللعمل الابداعي، مما يصل احيانا الي حد الحكم علي العمل الابداعي حكما متأثرا بأيديولوجية المبدع. وان كان من المهم هنا ملاحظة ان النقاش قد قام بتطوير فلسفته النقدية بشكل اساسي في العقدين الاخيرين بما يخفف من اهتمامه بأيديولوجية المبدع وينحاز اكثر الي القيمة الفنية للابداع - وان لم يكن ذلك بشكل مطلق.

ولعل اشهر مواقف النقاش في هذا الصدد هو موقفه الشديد من ادونيس احد اهم الشعراء العرب المعاصرين وعلي الاغلب احد اهم عشرة شعراء في تاريخ الشعر العربي كله. اذ كتب النقاش مقالا شديد اللهجة ضد ادونيس عام ١٩٨٨ بعنوان"ايها الشاعر الكبير.. انى ارفضك!"اعاد نشره بعد ذلك مصحوبا بمقال ثان لايقل عنه هجوما ضد ادونيس في كتابه"ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء"الصادر عام ١٩٩٢. كتب النقاش: "الكتاب (الثابت والمتحول)

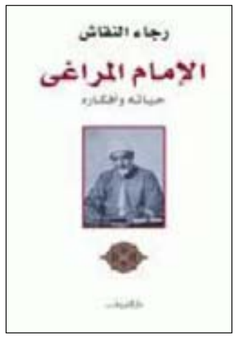

كله طعن ظاهر علي العروبة والأدب العربي والفكر الاسلامي - وهو طعن واضح الغرض - مكشوف الهدف. وليست فيه شئ من الموضوعية او الامانة العلمية او سلامة الفهم للنصوص.. فأدونيس يرفع راية التجديد الشعرى الكامل. ولنكه تحت هذه الراية يريد القضاء علي كل الجذور في الشعر العربي والشخصية العربية معا في وقت واحد."

وقد قرأت منذ بضعة سنوات ان رجاء النقاش تراجع عن هذا الرأى، واقام مأدبة كبيرة علي شرف ادونيس احتفي به فيها ودعا اليها عددا كبيرا من الادباء والشعراء.

والحقيقة ان هذا حدث نادر في الوسط الأدبى العربي او العربي عموما فلا احد من"الكبار"في أي مجال ادبى او سياسى او غيرها يعترف انه أخطأ، فعدم الاعتراف بالخطأ خاصية عربية اصيلة لم يكسرها سوى جمال عبد الناصر عندما اعترف بمسئوليته الكاملة عن كارثة ٦٧ وقدم استقالته.

ولهذا فإن مراجعة النقاش لموقفه من ادونيس هو دلالة جديدة علي ماتتمتع به شخصية النقاش من خصال فريدة ومميزة ونبيلة بشكل يكاد يكون نادر المثال.

ونلاحظ انه حتى في ذروة غضب النقاش ورفضه لأدونيس اشار اليه بالشاعر الكبير، ولم ينكر عليه شاعريته الكبيرة، وهو نفس مافعله بعد ذلك في كتابه عن الناقد الكبير د.لويس عوض"لويس عوض في الميزان"والذي اختلف فيه بشدة مع عوض في موقفه من اللغة العربية الفصحى ومواقف اخرى عديدة لكنه اخذ يكرر ويؤكد في نفس الوقت اعترافه بدور لويس عوض الكبير في النقد العربي وفي تعريف القراء العرب بعيون الآداب العالمية بحساسة نقدية مميزة وثراء ثقافي موسوعي.

الالتزام بالعروبة

احد المواقف الاساسية لرجاء النقاش هو انتمائه العربي الحميم والتزامه بالعروبة فكرا وثقافة ومصيرا. وهو لايكل في الدفاع عن العروبة بكل جوانبها.

وقد امتد دفاعه والتزامه العربي لأكثر من ثلاثين عاما. فقد نشر عام ١٩٧٨ كتابه"الانعزاليون في مصر"يختلف فيه بشدة مع لويس عوض وتوفيق الحكيم - وكانت لهما رؤية مخالفة ترى ان مصر متفردة بتاريخها المصري وان كان لها من امتداد فليكن باتجاه اوروبا والحضارة الغربية باعتبارها مستقبل النهضة الانسانية. ومؤخرا - في مطلع ٢٠٠٧ - قرأت للنقاش مقالا يهاجم فيه الكتاب الذين يهاجمون العروبة ويهزأون بها، فهو إذن كاتب لايبدل افكاره حسب الموجة واتجاه الرياح كما فعل بعض اليساريين الذين تحولوا الي اسلاميين او لبراليين او رأسماليين. وهم كثر. وهنا ايضا نجد اتساقا بين فكر النقاش وطبيعته التي تنفر من التلون والتنكر والسير في الزفة. فالنقاش رجل يقول مايؤمن به بغض النظر عن شعبية هذه المواقف.

فالنقاش ملتزم التزاما حميما بالعروبة والثقافة الاسلامية. ولايعنى ذلك تشدده او انغلاقه الديني، فقد كتب مقالات عديدة عن الأقباط وتاريخهم ووطنيتهم.

وقال انه كان في صغره يستمع من والده عن الزعيم القبطى ويصا واصف ومواقفه الوطنية المشرفة بينما وصف والده بأنه كان من اكثر المتفقهين في الدين الاسلامي علما ومعرفة بأصول الدين.. ومع ذلك كان يتحدث لابنائه في كل مناسبة عن زعماء الاقباط الوطنيين، ولاشك ان النقاش قد أكتسب من هذا حرصه علي تراثه الاسلامي من ناحية مع انفتاح علي الآخر واهتمام بالاقباط من ناحية اخرى.

الدفاع عن العروبة والتراث الاسلامي من ناقد عربى مسلم هو أمر طبيعي ومتوقع ومنشود، طالما لايمنع ذلك من الوقوف الي جانب حركات التجديد في الخطابين الادبى والدينى معا، وهو موقف يقفه النقاش دائما، فقد دافع مؤخرا عن كتاب للشوباشى يدعو لتجديد اللغة العربية فوقف مؤيدا لمطلب تبسيط النحو، كما كتب مقالات ضد الرجعية والتزمت في الخطاب الديني وفي السلوك الاجتماعي، فهو مجدد ومؤيد متحمس لحركات التجديد في الخطاب الادبى والفنى والدينى، دون ان يجرفه ذلك الي منزلق معاداة التراث واحتقار الذات والنظر بدونية لكل ماهو عربى او محلى، ومن هنا كان حبه وحماسه الشديد لنجيب محفوظ الذي وصل الي العالمية عن طريق المحلية، ولهذا ايضا كانت مشكلته مع أدونيس التي قام بتصحيحها حين أثبتت الأيام ان فكر أدونيس - علي قسوته في نقد التراث العربي الاسلامي - هو بالضبط الطريق الي تجديد هذا التراث وجذبه لمجاراة العصر ومعايشته.

لكل مقدمه رجاء النقاش من فكر وادب وابداع نقدى ومعارف واضافات ثقافية تتسم كلها بمسحة راقية رهيفة من الجمال والنبل والتألق، ولما له من فضل ادبى علي شخصيا وعلي عشرات وربما المئات غيرى، أشعر بالفرح الحقيقي وأنا اكتب عنه هذه الكلمات القاصرة، مشتركا مع الآخرين الذين سبقونى -في عدد مجلة الهلال - في الاحتفالية الحارة الجياشة الغارقة في حب رجاء النقاش.

عن المصري اليوم

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

مختارات للراحل رجاء النقاش

في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، يوم كانت القاهرة العاصمة الوحيدة للثقافة العربية ومركز ثقل الحركة الادبية والنقدية، كان المبدع هو الناقد، ولم يكن التخصص قد ظهر بعد، وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر هنا الشاعر والمفكر عباس محمود العقاد الذي كان يتابع من موقع النقد كل نتاج تلك المرحلة الادبية.

فيما بعد جاء جيل من النقاد المسلحين بالعلم والدراية والتأهيل الاكاديمي العالي الذين افسحوا الطريق لتنامي وتصاعد حركة النقد المنهجية، وعلى رأس هؤلاء يأتي د. محمد مندور.

ولعب كل من لويس عوض وعلي الراعي وعزالدين اسماعيل ومحمود أمين العالم وغالي شكري ورجاء النقاش وجابر عصفور، وعلى رغم تباين اعمارهم وانتماءاتهم، ادوارا مختلفة في التأسيس لحركة نقدية شاملة تركزت على تقريب الادب والفنون الى الناس، واستخدموا المنابر الصحافية لدفع الحيوية في مفاصل الشعر والقصة والرواية والمسرح، وضمن هذه الكوكبة اللامعة من الاسماء، سيظل اسم رجاء النقاش محفورا في ذاكرة الاجيال، وقد اختار المحرر الثقافي هذه المقاطع من كتاباته تقديرا من الصفحة لقيمة هذا الراحل ومكانته.

الماغوط وأمل دنقل

ان الدراسة المتأنية لتأثير الماغوط على أمل دنقل، تكشف لنا ان هذا التأثير كان كبيرا جدا، وان الشرارة التي انطلق منها امل دنقل قد اشتعلت في وجدانه بعد قراءته للماغوط، فالتشابه قوي جدا بين قصيدتي امل وقصيدتي الماغوط، وان كان هذا التشابه اكثر وضوحا بين قصيدة امل عن نهر "النيل" وقصيدة الماغوط عن نهر "بردى" فالقصيدتان تنطلقان من منبع واحد هو الاحساس بالاغتراب، الى الحد الذي اصبح فيه النيل وبردى، وهما من الاصول الثابتة والملامح الاساسية للشخصية القومية، غريبين يبحثان لنفسيهما عن وظيفة بالنسبة للعصر والمكان والانسان.

وتأثر أمل دنقل بمحمد الماغوط يبدو لنا ساطعا واضحا كل الوضوح، وقد ساعد على تعميق هذا التأثر ما بين الشاعرين من تشابه في الطبيعة الفنية والطبيعة الشخصية، فالشاعران يملكان في الفن عناصر مشتركة، منها السخرية الحادة، والوعي بالمفارقات والتناقضات بين الاشياء والمواقف، والاحساس بالمرارة، والنزعة العنيفة الى التمرد والثورة، والاهتمام الواسع بصور الحياة اليومية وما فيها من جزئيات صغيرة يتكون منها بناء قصائدهما الرائعة، اما من الناحية الشخصية فهما يتفقان في اخلاصهما وتفرغهما الكامل للفن، الى الحد الذي دفع بهما في كثير من الاحوال الى لون من التشرد والصعلكة وتعرضهما لمتاعب اقتصادية متلاحقة، وقد كان بامكان امل دنقل ان ينتصر على اهمال المجتمع له بقوة موهبته، كما فعل الماغوط، ولكن امل عجز عن الانتصار على المرض الاليم الذي اصابه، فذلك فوق قدرة البشر – موهوبين او عاديين – وهو ما ندعو الله الا يتعرض له الماغوط، فيبقى قادرا على مواصلة عطائه الفني «الوحشي" الجميل.

الشعر واللغة الجديدة

فالموقف الذي يقفه الشاعر العصري الجديد ليس هروبا من البلاغة النقية الصافية، ولكنه التماس لبلاغة اخرى اكثر قربا من الحياة واكثر تعبيرا عن نبضها الحقيقي، وهو في النهاية اهتمام ببلاغة الصور الشاملة والتجارب النفسية المكتملة اكثر من الاهتمام ببلاغة الالفاظ البراقة التي قد لا تخفي وراءها شعورا صادقا او تجربة عميقة، وهذا الكلام ليس معناه اهمال الالفاظ ولكن معناه ان الاعتماد عليها كوسيلة وحيدة من وسائل التأثير خطأ بعيد عن روح العصر، ولاشك ان اللغة الفصيحة «الكلاسيكية" ستظل اساسا قويا لتثقيف الشاعر المعاصر ادبيا وموسيقيا، ولكن الشاعر المعاصر من حقه ان يبحث عن لغته الخاصة المناسبة لتجاربه وهموم حياته، من دون ان يكون في البحث عن هذه اللغة الجديدة افساد لروح الشعر المتوهجة، ومن دون ان تكون هذه اللغة ستارا يبرر ضعف الموهبة او ضعف الثقافة الادبية واللغوية عند الشاعر الجديد.

الفن والأخلاق

صلة الفن بالاخلاق في هذا العصر موضوع مهم يفكر فيه رجل الدين ويفكر فيه اصحاب العقيدة السياسية، ويفكر فيه اي انسان يتمتع بضمير حر صادق يدعوه الى التفكير العام في مشاكل الحياة والانسان، واذا اردنا ان نصل الى رأي واضح في مشكلة الفن والاخلاق فعلينا ان نفرق بين معنى بسيط محمود للاخلاق، ومعنى آخر عميق فالاخلاق ليس معناها الوصايا العشر الخالدة: «لا تقتل، لا تسرق، لا تكذب، لا تزن.. الخ».

فهذه هي اخلاق كل عصر، وهي الاخلاق التي تحرسها المجتمعات الانسانية المختلفة بالقوانين او بالتقاليد، ولكن الاخلاق لها معنى آخر اعمق هو المعنى الذي يثير اهتمام الفنان وحماسته، هذا المعنى «الاخر» للاخلاق هو: الصدق مع النفس والصدق مع العالم من حولك، وهذا «الصدق» يقتضي رفض مظاهر الحياة التي لا تتجاوب مع الاحساس والشعور، حتى ولو كان الناس يوافقون على هذه المظاهر ويؤمنون بها، فما دامت هذه المظاهر زائفة فان الفنان الصادق سوف يرفضها ويطالب ببديل لها يحل محلها.

دفاعاً عن نزار قباني

أما عن موقفي الموضوعي من الحملة ضد نزار قباني، فقد كنت أرى فيها مصادرة لحق الفنان في أن يكتب ما يحس به ويعبر عن انفعاله بالأحداث الكبرى التي تجري في وطنه، حتى لو كان هذا التعبير عنيفاً وقاسياً، فالفن عندما يفقد صدقه وحرارته، بل وقسوته، فإنه سيصبح فناً بارداً لا قيمة له ولا تأثير. ومن جانب آخر فقد استخدم صالح جودت في حملته على نزار الأسلحة نفسها التي تعود على استخدامها في كل معاركه الأدبية، وهذه الأسلحة هي تحريض الدولة وأجهزة الأمن المختلفة ضد الأدباء الذين يختلف

معهم، ثم إثارة الشعور الديني ضد هؤلاء الأدباء، بغير حق وبغير دليل ثابت، وهو دائما يطالب في أية معركة من معاركه بالمنع والمطاردة للأدباء المختلفين معه، وذلك موقف لا يجوز لأي مفكر أن يلجأ إليه في أي حوار، فتلك مهمة أجهزة الأمن لا مهمة المفكرين، وواجب أصحاب الأقلام في تقديري هو أن يدافعوا عن ذلك دون أن أنتظر إجماعاً حول رأي أو موقف، فالأدب وجه من وجوه الحرية، والحرية تقتضي التنوع والاختلاف، وليس من الصواب أن نطلب في الأدب رأياً واحداً، يؤمن به الجميع راضين أو كارهين، فهذا نوع من الاستبداد، وأنا أكره الاستبداد في كل صوره لأنه تجميد للعقل والوجدان، لا يليق بكرامة الإنسان.

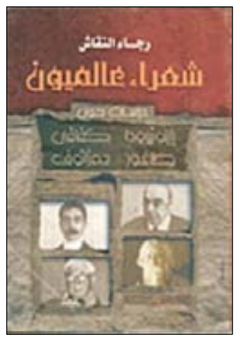

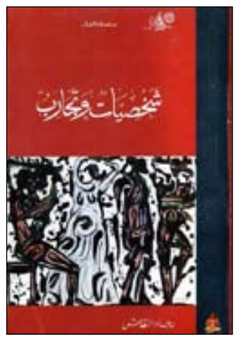

حول الاختلاف في الرأي

لست من الذين يحبون أن يفرضوا آراءهم أو أذواقهم على الآخرين، فأنا شديد الايمان بأن عالم الاداب واسع وعريض، وأنه يقوم على التنوع الشديد، ولذلك فأنا لا أتردد في الاختلاف مع الآخرين ولا أضيق باختلافهم معي، فكل رأي هو اجتهاد، وكل اجتهاد هو بحث عن الحقيقة، أما الوصول إلى «القول الفصل» أو الحقيقة النهائية فهو أمر متروك للزمن والتاريخ والجمهور، وقد ساعدني هذا الإيمان بضرورة الاختلاف في الرأي والذوق على التعبير عن أفكاري بوضوح وصراحة، وساعدني على أن أختلف حيث وجدت سبباً يبرر الاختلاف من وجهة نظري، وأن أتفق حيث وجدت ما يدعوني إلى مثل هذا الاتفاق، كل

المتنبي والبحتري وشعر المديح

لقد كان المتنبي شاعراً عظيماً.. نعم، ولكنه لم يكن أبداً شاعراً «منحطاً» بأي معنى من المعاني، والمشكلة التي عاناها المتنبي في عصره، ومازال يعانيها بعد أكثر من ألف عام حتى عصرنا الحالي، هي أنه لم يكن «مفهوماً» بالصورة الصحيحة، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من العظماء والشخصيات الصعبة المثيرة للجدل والخلاف في مجال السياسة والأدب والفن.

ولابد لكي تكون لدينا مفاتيح صحيحة لفهم المتنبي أن نعيد النظر إعادة كاملة فيما يسمى بشعر «المدح» في الأدب العربي، ذلك لأن أكثر الاعتراضات على المتنبي شاعراً وإنساناً، قد ظهرت من باب الاعتراض على شعر المدح وشعراء المدح في الأدب العربي.

صحيح أن شعر «المدح» في الأدب العربي كان ينطوي على بعض الصفحات «المشينة» أدبياً وأخلاقياً، ومن نماذج ذلك ما نجده عند شاعر كبير هو «البحتري» في بداية حياته، حيث كان يدخل المسجد من باب ويخرج من باب، ينشد الشعر في طريقه واقفاً على الحلقات، ثم يخرج من المسجد فيمدح باعة البصل والباذنجان كما يحدثنا طه حسين في كتابه من «حديث النثر والشعر»، حيث يقول أيضا عن مدائح البحتري: «وأقبح من هذا في أخلاق البحتري أنه مدح أكثر من عشرين رجلاً من كبار الأشراف في بغداد وغيرها في ذلك العصر، فلما تغيرت حالهم ودالت دولهم نقل هذه المدائح إلى غيرهم، ومحا أسماءهم وأثبت مكانها الأسماء الجديدة، فهو إذا لم يكن يتردد في بيع شعره كأقبح ما يبيع الشعراء أشعارهم».

وهذا الذي يقوله طه حسين عن البحتري، في بداية حياته وفي بعض المراحل الأخرى من حياته بعد أن تقدمت مكانته الأدبية، هو نموذج من النماذج «الحية» التي تعطي صورة رديئة وغير كريمة لشعر المدح في الأدب العربي القديم.

عن مقالات رجاء النقاش
اصدار مجلة دبي الثقافية

رجاء النقاش.. مكتشف المواهب

عندما كان أستاذنا الدكتور لويس عوض هو المشرف على الصفحات الثقافية بجريدة "الأهرام" فى الستينيات، يزغ نجم محرر ثقافى نابه فى ذلك الوقت هو مصطفى ابراهيم مصطفى الذى لفت الأنظار بمقالاته البديعة وخاصة تلك التى كتبها عن الفن التشكيلي.

وكان "مصطفى" هو الذى عرفني عام ١٩٦٦ يزميل له لا يقل ذكاء وموهبة هو وحيد النقاش.

وجاءت هزيمة ٥ يونيه / حزيران ١٩٦٧ لتصدم جيلنا – الذى كان لا يزال غضا فى عمر الزهور ومشحونا بأمنيات وردية لا حدود لها – وتهزه من الأعماق.

وفى إطار تداعيات هذه الهزيمة المروعة قرر مصطفى ابراهيم مصطفى ووحيد النقاش شد الرحال والسفر من القاهرة التى غمرها ظلام "النكسة" إلى باريس عاصمة النور، ليس هربا وإنما أملاً فى التوصل إلى إجابات علمية لطوفان الأسئلة التى طرحتها هذه الهزيمة غير المنطقية.

سعد هجرس

كاتب مصري

لكنها كانت رحلة فى اتجاه واحد.. فقد ذهبا بلا عودة. حيث مات "وحيد" فى أحد مستشفيات باريس، وعلى نفس السرير وبنفس المرض اللعين الذى هاجم الكبد مصطفى ابراهيم مصطفي – الذى اشتهر فى الصحافة الفرنسية بمصطفى مرجان – لفظ أنفاسه الأخيرة لتفقد مصر أثنين من أجمل مثقفيها الوافدين.

كانت هذه هى بداية تعرف الشخص بأول شخص من "آل النقاش" الذين أسعدنى الحظ بالتعرف على ثلاثة منهم.. ومنهن.

لكن العجيب أن ذلك لم يشمل "عميد" الأسرة، والمع أفرادها فى الستينيات، ألا وهو الكاتب والناقد الأدبي الكبير رجاء النقاش.

ولم يكن ذلك راجعا إلى صعوبة لقائه وجهاً لوجه، بقدر ما كان راجعا إلى المكانة الكبيرة التى تبوأها فى ذلك الحين باعتباره واحدا من أصغر رؤساء التحرير، وهو منصب لا يتم التعيين فيه إلا بقرار سياسي من أعلى مستوى.

وبالتالى كانت النظرة الشائعة لدى المثقفين الثوريين فى ذلك الحين ان كل من يشغل منصب رئيس تحرير لابد أن يكون على "علاقة خاصة" بالسلطة.

وقد خلق ذلك الانطباع حاجزاً نفسياً بيننا وبين كل رؤساء التحرير، بما فى ذلك "التقدميون" منهم، الذين كان من السهل – والاستسهال – تفسير وجودهم فى هذه المواقع القيادية بأنه من لزوميات "تجميل" صورة النظام وخداع خلق الله، وبالذات عموم المثقفين.

وبالنسبة لعميد "آل النقاش"، أى الأستاذ رجاء، أضيف إلى هذا الحاجز النفسى "العام" حاجزاً نفسياً "خاصاً" من جراء إتهام صديقنا الشاعر أحمد فؤاد نجم، ورفيقه الشيخ إمام عيسى، له باتهامات شتى كان لها وقع سيئ علينا فى ذلك الحين، خصوصاً وأنه لم تكن هناك إمكانية التدقيق فى هذه الاتهامات، أو حتى الرغبة فى القيام بذلك.

فرغم أن رجاء النقاش كان أحد أفراد قلائل بذلوا مساعيهم الحميدة لتسليط الأضواء على ظاهرة نجم وإمام فى ذلك الحين وتقديمهم للجمهور من خلال حفل فى نقابة الصحفيين عام ١٩٦٨، فان الشيخ إمام أتهم محمد فايق ومحمد عروق بمحاولة شرقوتهما عن طريق رجاء النقاش، وقال إن عروق عرض عليه هو ونجم شيكات قيمة كل منها عشرة آلاف جنيه، وأنهما اعتبرا هذه الشيكات رشوة صريحة "أنتم عايزين تشترونا.. بس احنا ما نتبعش".

ورغم ان رجاء النقاش أكد أن هذه القصة كاذبة من الألف إلى الياء، وتنطوى على إساءة إلى شخصين من أشرف وأنبل الأشخاص هما محمد فايق ومحمد عروق، وأنه كان شاهدا أساسيا على القصة المفقة وأن الشيك الذى صرف لهما هو ٥٠ جنيها فقط نظير الاشتراك فى برنامج خاص بإذاعة صوت العرب.

رغم ذلك.. كانت الاتهامات التى أثارها نجم وإمام فى ذلك الحين سحابة دخان زادت من عدم وضوح الرؤية لقيمة رجاء النقاش (وبالمناسبة فان نجم جدد هذه الاتهامات فى لقاء حديث له مع قناة الجزيرة وأضاف إليها اتهاما قاسيا لأستاذ رجاء النقاش بأنه كان وراء القبض عليه فى مرات اعتقاله).

وفى ظل هذه الرؤية الضبابية كان لقائى الأول وجها لوجه مع الأستاذ رجاء النقاش مصادفة عجيبة. حيث كان هناك موعداً بينى وبين أحد قادة اليسار المصري، المناضل الكبير رجائى طنطاوي. وكانت هذه أول مرة أذهب إليه فى منزله بالقرب من نادي الصيد. وعند مدخل العمارة سألنى البواب عن وجهتى.. فقلت له إننى أريد الذهاب إلى شقة الأستاذ "رجائى" فأخذنى من يدى ودق جرس إحدى الشقق. وكان الذى فتح الباب هو رجاء النقاش وهى مصادفة عجيبة لأن إسم "رجاء" من الأسماء النادرة، فما بالك وأن يجتمع "رجاء" و"رجائى" فى نفس العمارة؟!

وبعد هذه المقابلة التى جاءت عن طريق الخطأ مر أكثر من ٣٥ عاما إلى أن قابلت الكاتب الكبير رجاء النقاش منذ بضعة أسابيع فى لقاء عام ضم عددا من كبار الكتاب أذكر منهم الأساتذة جمال بدوى ونبيل زكى ورءوف توفيق.

وبين المقابلتين الشخصيتين العابرتين جرت مياه كثيرة فى النهر وتوالت أحداث وطرأت متغيرات وظهرت أسماء واندثرت أسماء وغير كتاب وصحفيون جلودهم، لكن وسط هذه التطورات الدراماتيكية دائما والتراجيدية كثيراً والكوميدية أحياناً تعرفت جيداً على رجاء النقاش ومن خلال كتاباته وليس من خلال أى شئ آخر من أشكال العلاقات العامة أو الخاصة.

وكانت الانجازات الفكرية والأدبية لرجاء النقاش هى التى تكفلت بتحطيم الحاجز العام والحاجز الخاص اللذين وقفا دون اقترابى من عميد آل النقاش فترة طويلة.

فرغم نجاة رجاء النقاش من البطش الذي لحق بمعظم المثقفين التقدميين فى الحقبة الناصرية، بل ونجاحه فى التمتع "بعلاقات خاصة" مع الحكم بينما كان زملاؤه قابعين فى غياهب السجون والمعتقلات، استطاع رجاء النقاش أن ينأى بنفسه – فى الأغلب الأعم – عن التحول إلى "سوق"، أو الوقوع فى مستنقع "خونة الثقافة".

بالعكس من ذلك عكف رجاء النقاش فى كافة العصور التى تعاقبت على مصر بعد سقوط النظام الملكى على مشروع نقدى، تنويرى، تقدمى، فى الاتجاه العام.

ويكفى الاشارة برءوس أسهم إلى أهم عناوين هذا المشروع النقدى:

الملمح الأول دخول رجاء النقاش بشجاعة الخطأ مر أكثر من ٣٥ عاما إلى أن قابلت الكاتب الكبير رجاء النقاش منذ بضعة أسابيع فى لقاء عام ضم عددا من كبار الكتاب أذكر منهم الأساتذة جمال بدوى ونبيل زكى ورءوف توفيق.

وبين المقابلتين الشخصيتين العابرتين جرت مياه كثيرة فى النهر وتوالت أحداث وطرأت متغيرات وظهرت أسماء واندثرت أسماء وغير كتاب وصحفيون جلودهم، لكن وسط هذه التطورات الدراماتيكية دائما والتراجيدية كثيراً والكوميدية أحياناً تعرفت جيداً على رجاء النقاش ومن خلال كتاباته وليس من خلال أى شئ آخر من أشكال العلاقات العامة أو الخاصة.

وكانت الانجازات الفكرية والأدبية لرجاء النقاش هى التى تكفلت بتحطيم الحاجز العام والحاجز الخاص اللذين وقفا دون اقترابى من عميد آل النقاش فترة طويلة.

فرغم نجاة رجاء النقاش من البطش الذي لحق بمعظم المثقفين التقدميين فى الحقبة الناصرية، بل ونجاحه فى التمتع "بعلاقات خاصة" مع الحكم بينما كان زملاؤه قابعين فى غياهب السجون والمعتقلات، استطاع رجاء النقاش أن ينأى بنفسه – فى الأغلب الأعم – عن التحول إلى "سوق"، أو الوقوع فى مستنقع "خونة الثقافة".

بالعكس من ذلك عكف رجاء النقاش فى كافة العصور التى تعاقبت على مصر بعد سقوط النظام الملكى على مشروع نقدى، تنويرى، تقدمى، فى الاتجاه العام.

ويكفى الاشارة برءوس أسهم إلى أهم عناوين هذا المشروع النقدى:

الملمح الأول دخول رجاء النقاش بشجاعة الخطأ مر أكثر من ٣٥ عاما إلى أن قابلت الكاتب الكبير رجاء النقاش منذ بضعة أسابيع فى لقاء عام ضم عددا من كبار الكتاب أذكر منهم الأساتذة جمال بدوى ونبيل زكى ورءوف توفيق.

وبين المقابلتين الشخصيتين العابرتين جرت مياه كثيرة فى النهر وتوالت أحداث وطرأت متغيرات وظهرت أسماء واندثرت أسماء وغير كتاب وصحفيون جلودهم، لكن وسط هذه التطورات الدراماتيكية دائما والتراجيدية كثيراً والكوميدية أحياناً تعرفت جيداً على رجاء النقاش ومن خلال كتاباته وليس من خلال أى شئ آخر من أشكال العلاقات العامة أو الخاصة.

وكانت الانجازات الفكرية والأدبية لرجاء النقاش هى التى تكفلت بتحطيم الحاجز العام والحاجز الخاص اللذين وقفا دون اقترابى من عميد آل النقاش فترة طويلة.

من شبابنا بدون الرجوع إلى مراجع عديدة معقدة، كما أن مثل هذا التفسير هو وحده الذي يستطيع أن يحرر القرآن من الخرافات التي تسربت إلى التفسيرات القديمة مثل تفسير (البرق) بأنه صراع بين ملائكة الخير والشر، وما إلى ذلك من الأفكار التي يقدم العلم المعاصر بديلاً واضحاً لها قائما على المعرفة الصحيحة بظواهر الأمور الطبيعية والانسانية.

هذه بعض العقبات الشكلية.. ولكن هناك عقبات أخرى أعمق وأبعد. فما زالت المؤسسات الدينية عندنا ترفض إلى أبعد الحدود الاعتراف بوسائل التأثير العصرية مثل السينما والمسرح والموسيقى والرسم والإذاعة والتلفزيون.

.. وإذا نظرنا إلى رجال الدين في الغرب وجدنا أنهم قد توسعوا في الاستفادة من هذه الوسائل إلى أبعد الحدود. فقد امتلأت الكنائس الغربية بالنوافذ الفنية الرائعة، بل إن هناك مدرسة دينية فذة في الفنون التشكيلية، وهناك آلاف التماثيل والتماثيل الرائعة في الغرب مستمدة كلها من المسيحية، كما توسعت في استخدام الموسيقى وبذلك أصبحت الكنيسة مكاناً مشرقاً يجوه الروحي حيث يساعد الفن بوسائله المختلفة على تعميق هذا الجو بصورة رائعة.

أما السينما والمسرح فقد أتيح لهما أن يعتمدا على الكثير من الإنجيل والعهد القديم بصورة واسعة رحبة. بل لقد ظهر في السينما فيلم طويل هو فيلم (الإنجيل) ومهما قيل عن هذا الفيلم وعن أخطائه فالمحاولة جريئة، وهي محاولة لم تقل أي اعتراض من السلطات الدينية في الغرب.

أما عندنا فنحن نجد فاصلاً قاسياً بين المسرح والسينما وبين القرآن وقصص القرآن، كما نجد حرباً على أي اقتراب بين القرآن وبين فن الموسيقى أو فن التصوير والرسم.

والحقيقة أن مثل هذا الموقف يجب أن يتغير.. ومثل هذه القيود يجب أن تزول، ولا بد من عقد اجتماعات واسعة بين رجال الدين ورجال الفن والثقافة حتى يتم الوصول إلى حل لا يتعارض مع المبادئ الدينية، بل يخدمها ويساعدها على أن تمد جذورها في أعمق أعماق الضمير والوجدان.

.. إننا نجد في الغرب كتبا تصدر للأطفال الصغار فيها الكثير من الرسومات والصور التي توضح قصص الإنجيل وتضيئها وتبسطها لهؤلاء الأطفال وهي كتب رائعة وعظيمة ومؤثرة.

... ولكننا هنا نتردد في أي جهد من هذا النوع يجعل القرآن قريبا من الانسان والقلب الانساني.. ويجعل القرآن واضحا كل الوضوح في ضوء العصر الحديث وما يمثل به هذا العصر من أفكار جديدة وفنون جديدة.

... إننا عندما نحرر القرآن من مثل هذه القيود المحيطة به لا نكون قد أسأنا إلى القرآن، بل نكون قد أحسنا إلى أنفسنا وإلى الدين الاسلامي الذي نؤمن به.. إننا يجب ألا نتردد في تقديم مسرحيات مستمدة من روح القرآن.. يجب ألا نتردد في شيء من هذا على الإطلاق لأن ذلك يطلق القوى العظيمة الكامنة في القرآن.. ويملأ بها قلب الانسان المعاصر وضميره ووجدانه، أما إذا اكتفينا بأن نجعل القرآن مجرد (نص مقدس) سوف يصعب الوصول إليه إلا لمن كان متخصصا في القرآن والعلوم الدينية.

... إن واجبنا هو أن نحرر القرآن من هذه القيود ونبذل كل جهدنا في سبيل تمهيد الطريق للوصول إلى كل ما في القرآن من جمال فكري وروحي وفني وإنساني وكل ما فيه من قيم دينية عليا حتى لا يصبح الطريق إلى القرآن غاية في الصعوبة والقسوة والمشقة.

الملمح الثاني في مشروع رجاء النقاش النقدى يتعلق بإصلاح اللغة العربية، وكان في هذا المجال شجاعا ومستنيراً أيضاً حيث ذهب إلى أنه "لا بأس من التفكير المخلص في تجديد شباب اللغة وإعادة الحيوية والصبا والجمال إليها، مع العمل على تخفيف القيود عن الذين يحبونها ويريدون أن يقتربوا منها دون أن يجدوا في ذلك أي عسر أو تعقيد".

ونقل النقاش عن المرحوم الدكتور شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية السابق رسالة بعث بها إليه تعليقاً على الموضوع ذاته أشار فيها إلى كتاب له صدر بعنوان "تجديد النحو" وصفه بأنه يحمل "أسس النهوض بهذا النحو، مثل: إلغاء الإعراب التقديري المحلي، ووضع ضوابط جديدة تذلل صعوباته، مع حذف الأبواب التي تثقل النحو وتجهد الناشئة".

واعتبر ضيف أنه "من المؤكد أن اللغة العربية لا تنتحر ولا تتراجع في هذه الأيام، بل تزدهي وتزدهر طوال قرنين من الزمان ناضجا، كتبه شعراء مهوبون. وبكلمات جانبه وصف النقاش كتاب "تجديد النحو" بأنه "كتاب رائع يحمل مشروعًا كاملاً وجادًا التيسير النحو العربي، وتخليصه من تعقيداته وصعوباته وقواعده الزائدة التي يمكن، بل يجب الاستغناء عنها".

الملمح الثالث هو أن رجاء النقاش لم يسمك العصا من المنتصف في المعارك الفكرية والأدبية الكثيرة التي خاضها، بل إنه انحاز دائما – أو غالبا – إلى التجديد. وإن كان البعض – ومنهم الكاتب والناقد صبحى حديدى على سبيل المثال – قد أخذ عليه.

ولكنه كان – وما يزال في الواقع – شديد الميل إلى إسقاط السياسة (بمعناها المباشر والعقائدي والحزبي) على الظواهر الإبداعية، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلت هذه بحقوق السياسة.

وفي تأتي ممارسة كهذه من ناقد كبير ومتمرّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه في الواقع ينمّ عن استعداد للتضحية باستقلالية العملية الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التي نشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقاش "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضاري وقومي للأمّة العربية واللغة العربية وآدابها. ولم يتردّد المؤلف في معارضة حركات التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والاستهانة بالتراث الحضاري العربي بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

انتهت ملاحظة صبحى حديدى، لكنها ليست فوق مستوى الجدال، وعلى سبيل المثال فان ناقدا آخر مثل عادل الاسطه يطالبنا بالتوقف أمام بعض ما ورد في مقدمة الطبعة الأولى (عام ١٩٦٩) لكتاب رجاء النقاش "محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة" إذ نقرأ ان النقاش لا يتعاطف مع شعر الأرض المحتلة كونه شعر مقاومة وإنما يرى فيه شعراً ناضجاً، كتبه شعراء مهوبون. وبكلمات جانبه وصف النقاش كتاب "تجديد النحو" بأنه "كتاب رائع يحمل مشروعًا كاملاً وجادًا التيسير النحو العربي، وتخليصه من تعقيداته وصعوباته وقواعده الزائدة التي يمكن، بل يجب الاستغناء عنها".

الملمح الثالث هو أن رجاء النقاش لم يسمك العصا من المنتصف في المعارك الفكرية والأدبية الكثيرة التي خاضها، بل إنه انحاز دائما – أو غالبا – إلى التجديد. وإن كان البعض – ومنهم الكاتب والناقد صبحى حديدى على سبيل المثال – قد أخذ عليه.

ولكنه كان – وما يزال في الواقع – شديد الميل إلى إسقاط السياسة (بمعناها المباشر والعقائدي والحزبي) على الظواهر الإبداعية، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلت هذه بحقوق السياسة.

وفي تأتي ممارسة كهذه من ناقد كبير ومتمرّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه في الواقع ينمّ عن استعداد للتضحية باستقلالية العملية الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التي نشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقاش "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضاري وقومي للأمّة العربية واللغة العربية وآدابها. ولم يتردّد المؤلف في معارضة حركات التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والاستهانة بالتراث الحضاري العربي بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

انتهت ملاحظة صبحى حديدى، لكنها ليست فوق مستوى الجدال، وعلى سبيل المثال فان ناقدا آخر مثل عادل الاسطه يطالبنا بالتوقف أمام بعض ما ورد في مقدمة الطبعة الأولى (عام ١٩٦٩) لكتاب رجاء النقاش "محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة" إذ نقرأ ان النقاش لا يتعاطف مع شعر الأرض المحتلة كونه شعر مقاومة وإنما يرى فيه شعراً ناضجاً، كتبه شعراء مهوبون. وبكلمات جانبه وصف النقاش كتاب "تجديد النحو" بأنه "كتاب رائع يحمل مشروعًا كاملاً وجادًا التيسير النحو العربي، وتخليصه من تعقيداته وصعوباته وقواعده الزائدة التي يمكن، بل يجب الاستغناء عنها".

الملمح الثالث هو أن رجاء النقاش لم يسمك العصا من المنتصف في المعارك الفكرية والأدبية الكثيرة التي خاضها، بل إنه انحاز دائما – أو غالبا – إلى التجديد. وإن كان البعض – ومنهم الكاتب والناقد صبحى حديدى على سبيل المثال – قد أخذ عليه.

ولكنه كان – وما يزال في الواقع – شديد الميل إلى إسقاط السياسة (بمعناها المباشر والعقائدي والحزبي) على الظواهر الإبداعية، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلت هذه بحقوق السياسة.

وفي تأتي ممارسة كهذه من ناقد كبير ومتمرّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه في الواقع ينمّ عن استعداد للتضحية باستقلالية العملية الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التي نشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقاش "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضاري وقومي للأمّة العربية واللغة العربية وآدابها. ولم يتردّد المؤلف في معارضة حركات التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والاستهانة بالتراث الحضاري العربي بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

انتهت ملاحظة صبحى حديدى، لكنها ليست فوق مستوى الجدال، وعلى سبيل المثال فان ناقدا آخر مثل عادل الاسطه يطالبنا بالتوقف أمام بعض ما ورد في مقدمة الطبعة الأولى (عام ١٩٦٩) لكتاب رجاء النقاش "محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة" إذ نقرأ ان النقاش لا يتعاطف مع شعر الأرض المحتلة كونه شعر مقاومة وإنما يرى فيه شعراً ناضجاً، كتبه شعراء مهوبون. وبكلمات جانبه وصف النقاش كتاب "تجديد النحو" بأنه "كتاب رائع يحمل مشروعًا كاملاً وجادًا التيسير النحو العربي، وتخليصه

عليك الدنيا ياجدع، وهو مستنيك بكرة الساعة ١١ علي قهوة ايزافيتش، وذهبت له في اليوم الثاني الساعة ١٠ وكان منتظرا، وأعطيت له قصة (المستأجر).. وأعطاها للجمع بعدها مباشرة..، ويستطرد أصلان عن رجاء: هذا الرجل كبير النفس فعلا، زي يحيي حقي وعبدالفتاح الجمل وصلاح عبدالصبور، وكل هؤلاء العظام الذين لايلعب الغرض في نفوسهم إلا نبلا ونزاهة وجمالا.. رجاء مرة قابلني علي سلم دار الهلال، عندما كان رئيس تحرير مجلة (الدوحة) القطرية، وكان في زيارة للقاهرة، وقالي لي: معندكش كتابات جديدة يا إبراهيم، وكنت أيامها والنضالي مع هذه الحركة، بسبب ما يعانيه أصحابها من الشعراء الشباب في ظروف حياتهم الصعبة داخل إسرائيل.

.. إن التعاطف حقيقة لا شك فيه، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الاراضي المحتلة تتمتع بقيمة فنية على اكبر قدر من النضج والاصالة، بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الأخرى. ان الشعراء الشبان البارزين في الاراضي المحتلة هم شعراء موهوبون".

وهذا الجدل ينقلنا إلى ملمح رابع للمشروع النقدى لرجاء النقاش، حيث نجده قد قدم إلينا إضاءة لكنم هائل من الابداعات، ومن خلال هذه الاضاءة قام رجاء النقاش بتعريفنا بأجيال من المبدعين المصريين والعرب. وهذه ثروة حقيقية أغنت المكتبة المصرية والمكتبة العربية.

وليست المسألة مجرد إضاءة نقدية لابداعات موجودة، بل تتعدى ذلك إلى ملمح مهم لرجاء النقاش هو اكتشافه للمواهب الجديدة.

وكى لا أعيد اكتشاف القوانين المكتشفة اكتفي بهذا الصدد بإحالة القارئ إلى الأديب والناقد الشاب سفيان يوسف الذي تناول هذه الزاوية في سياق مقال بديع بعنوان "دردشات ليلية مع إبراهيم أصلان" قال فيه:

.. أنظر مثلا إلى رجاء النقاش.. إنه يمتلك خبرة اكتشاف المواهب، وتقديم الكتاب، وتسهيل الجسر الموصل بينهم وبين القراء، فهو أول من كتب عن الطيب صالح، ومحمود درويش، أزدهرت مجلة الهلال عندما كان يرأس تحريرها، وعندما كان يعد عددا خاصا عن القصة القصيرة في سنة ٧٠ قلب علي الدنيا، وأرسل الناقد السينمائي فتحي فرج لي في الكيت كات وكنا ساعتها نقفل باب البيت بالخزينة عشان الفسيل كان مسروقا.. وسمعت فتحي ينادي من الشارع، وعندما رأني، صرخ: رجاء النقاش قالب الدنيا.. وكنت أنا مش عارف باكتب في (عصافير النيل).. وكنت كاتب فعلا خمسة مشاهد، فقلتله: عندي خمس حاجات.. ممكن أبعتهم لك، بس تبعتلي فلوس قبل نشرهم.. وقد كان.. ويتساءل أصلان: من يفعل ذلك الآن؟ وسؤال إبراهيم بالطبع مشروع، لأن الواقع الثقافي فعلا يضن بأفعال من هذا النوع إلا قليلا، ولينظر كل منا إلى كم حولنا من مجاملات وتربيطات وأسفار وترجمات، ونشر، وان لم يسع المرء نحو كل ذلك بطرق غير مشروعة أو ملتوية، لن ينال ذلك، لذلك هناك من يطرقون الأبواب بقوة لدرجة الازعاج، وسنجد هؤلاء الطارقين يتصدرون كل قوائم التراحيل المعتادة، دون تقديم قيمة مرجوة، هذا لأن المناخ تنقصه الضمائر النبيلة، ومن ينطوون علي هذه الضمائر، بعيدون عن مواقع القرار، ومواقع السلطة..

هذه الشهادة تنقلنا إلى ملمح أخير موجودة، بل تتعدى ذلك إلى ملمح مهم لرجاء النقاش هو اكتشافه للمواهب الجديدة.

وكى لا أعيد اكتشاف القوانين المكتشفة اكتفي بهذا الصدد بإحالة القارئ إلى الأديب والناقد الشاب سفيان يوسف الذي تناول هذه الزاوية في سياق مقال بديع بعنوان "دردشات ليلية مع إبراهيم أصلان" قال فيه:

.. أنظر مثلا إلى رجاء النقاش.. إنه يمتلك خبرة اكتشاف المواهب، وتقديم الكتاب، وتسهيل الجسر الموصل بينهم وبين القراء، فهو أول من كتب عن الطيب صالح، ومحمود درويش، أزدهرت مجلة الهلال عندما كان يرأس تحريرها، وعندما كان يعد عددا خاصا عن القصة القصيرة في سنة ٧٠ قلب علي الدنيا، وأرسل الناقد السينمائي فتحي فرج لي في الكيت كات وكنا ساعتها نقفل باب البيت بالخزينة عشان الفسيل كان مسروقا.. وسمعت فتحي ينادي من الشارع، وعندما رأني، صرخ: رجاء النقاش قالب الدنيا.. وكنت أنا مش عارف باكتب في (عصافير النيل).. وكنت كاتب فعلا خمسة مشاهد، فقلتله: عندي خمس حاجات.. ممكن أبعتهم لك، بس تبعتلي فلوس قبل نشرهم.. وقد كان.. ويتساءل أصلان: من يفعل ذلك الآن؟ وسؤال إبراهيم بالطبع مشروع، لأن الواقع الثقافي فعلا يضن بأفعال من هذا النوع إلا قليلا، ولينظر كل منا إلى كم حولنا من مجاملات وتربيطات وأسفار وترجمات، ونشر، وان لم يسع المرء نحو كل ذلك بطرق غير مشروعة أو ملتوية، لن ينال ذلك، لذلك هناك من يطرقون الأبواب بقوة لدرجة الازعاج، وسنجد هؤلاء الطارقين يتصدرون كل قوائم التراحيل المعتادة، دون تقديم قيمة مرجوة، هذا لأن المناخ تنقصه الضمائر النبيلة، ومن ينطوون علي هذه الضمائر، بعيدون عن مواقع القرار، ومواقع السلطة..

هذه الشهادة تنقلنا إلى ملمح أخير موجودة، بل تتعدى ذلك إلى ملمح مهم لرجاء النقاش هو اكتشافه للمواهب الجديدة.

وكى لا أعيد اكتشاف القوانين المكتشفة اكتفي بهذا الصدد بإحالة القارئ إلى الأديب والناقد الشاب سفيان يوسف الذي تناول هذه الزاوية في سياق مقال بديع بعنوان "دردشات ليلية مع إبراهيم أصلان" قال فيه:

.. أنظر مثلا إلى رجاء النقاش.. إنه يمتلك خبرة اكتشاف المواهب، وتقديم الكتاب، وتسهيل الجسر الموصل بينهم وبين القراء، فهو أول من كتب عن الطيب صالح، ومحمود درويش، أزدهرت مجلة الهلال عندما كان يرأس تحريرها، وعندما كان يعد عددا خاصا عن القصة القصيرة في سنة ٧٠ قلب علي الدنيا، وأرسل الناقد السينمائي فتحي فرج لي في الكيت كات وكنا ساعتها نقفل باب البيت بالخزينة عشان الفسيل كان مسروقا.. وسمعت فتحي ينادي من الشارع، وعندما رأني، صرخ: رجاء النقاش قالب

عن صحيفة *الاهرام*

رجاء النقاش.. أيها النبيل

كان رجاء النّقّاش فارساً من فرسان الكلمة بكل ما في الفروسيّة من معانٍ ودلالات وقيَم نبيلة. تعرّفتُ عليه مع أبناء جيلي- في أواخر السّتينيّات- من خلال كتابه "أدباء معاصرون". فتَرسّخ لدينا يقينٌ أكثر منه نبوءة بأنه ناقد السّنوات القادمة. وقد كانَ. بَزَغ نجم رجاء النّقّاش وصارَ ملءَ السّمع والبصر وتبوّأ مكانةً في حياتنا الثقافية تليق بقدْره وعلْمه وملكاته النّقْديّة وثقافته المتعدّدة المناهل والمشارب. كان التلميذ النّابه لاثنين من أعمدة الأدب والنقد في الثقافة العربية هما الدكتور طه حسين والدكتور محمد مندور. أخذ عنهما نصوعَ البيان وعمقَ الفكر ووضوح الرّؤية وإشراق العبارة وتماسُكَ المَنهج والإيمانَ العميق بدور الأدب ورسالته في المجتمع الإنساني وفي النّفس البشريّة، دون إغفال لقيمه الجمالية، أو هبوط إلى مستوى الخطابة الفجّة والشعارات البرّاقة التي تغفل الأدب والفنّ مصداقيتهما وأثرهما العميق في العقل والروح والوجدان. كما أخذ عنهما إيمانهما الرّاسخ بارتباط الأدب والفنّ بواقع الحياة ومُتغيّراتها باعتبارها الينبوع الذي لا ينضب لكلّ إبداع. وتأسيسا على ذلك فإن الأديب أو الفنّان هو نبض الواقع الرّاصد لحركاته وسكناته، وضميره الحيّ الناطق بلسانه والمعبّر عن خلجاته وآماله وآلامه وأوجاعه. والأديبُ أو الفنّانُ الحقّ هو ذاك الذي لا انفصام بين فكره وسلوكه، ولا تناقض بين آرائه ومواقفه.

إبراهيم سعد الدين
كاتب مصري

في كتابه "أدباء مُعاصرون". وأنا أكتب عنه الآن من الذاكرة بعد ما يقرب من أربعين عاما من قراءته. تناول رجاء النّقّاش بالتحليل والنقد أعمال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ومحمد مندور والطيّب صالح وآخرين، فضلاً عن قضايا معاصرة في الأدب والنقد كانت تشغل الساحة الثقافية وتلحُّ على الضمير العام آنذاك. دراسته الموسّعة عن أعمال نجيب محفوظ هي، حتى يومنا هذا، أحد المراجع الأساسية والمنافذ الرّحْبة للولوج إلى هذا العالم القصصي والروائي شديد الغنى والخصب والتشابك والتعقيد. وقد رصدَ النّقّاش في رؤية مُدهشة حقّاً وبفكْر لامع وحسٍّ نقديٍّ نافذ. ملامحَ التّحوُّل في مراحله التاريخية . شكلاً ومضموناً . وتقنيات الكتابة واللغة وأسلوب القصّ والتعبير في كلّ مرحلة، بدءا برواياته التاريخية الثلاث ثمّ ثلاثيته الشهيرة وانتهاءً بمرحلة ما بعد الثلاثية والتي أطلقَ عليها النّقّاش مرحلة "الواقعية الوجوديّة" وكان أبرزُ ثمراتها روايات "السّمّان والخريف" و "الشّحّاذ" و "السّراب" و "اللّص والكلاب". وفي دراسته عن فنّ توفيق الحكيم الروائي تناول النّقّاش روايته الشهيرة "عودة الرُّوح" في قراءة جديدة لرموزها ومُعطياتها وأحداثها التي هي إرهاصات بانبثاق ثورة ١٩١٩ في مصر.

وفي دراسته عن د. محمد مندور تناول سيرة حياة هذا المفكر والناقد الكبير ومنهجه النقدي ومؤلفاته التي كانت وما تزال معالم مضيئة على طريق التقدم والتنوير والارتقاء. كما عرض لقصة خلافه الشهيرة مع أستاذه د. طه حسين وهو الخلاف الذي حَرمَ مندور من المضيّ قُدُماً في وظيفته الأكاديمية بالجامعة بدعوى ضعف بصره.

أمّا دراسته عن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" فقد كانت بعنوان: "الطّيّب صالح.. عَبقريّةٌ روائيّة جديدة". لم تكن الرواية قد صدرت بعْد. وإنما اطّلع عليها القرّاء في مجلة (حوار) التي كانت تصدرُ في بيروت وأثير حولها جدل كثير أصابَ بعض رذاذه الطّيّب صالح ورواياته. وقد تصدّى رجاء النّقّاش، بثقة ويقين وجسارة المثقف والمفكّر والناقد، لهذه الدعاوى بالتفنيد نافضا من الرواية ومؤلفها أيةَ شوائب أو شبهات أراد البعض إلحاقها بهما في سياق الحملة على المجلة. وقام رجاء النقاش بعد ذلك بنشر هذه الرواية ضمن إصدارات دار الهلال أثناء توليه رئاسة تحرير مجلة "الهلال". وكانت دراسته النقديّة التي تضمنها كتابه "أدباء معاصرون" عن هذه الرواية بمثابة مصباح مُنير كشف ملامح الإبداع والتميز في هذا العمل الرّوائي الفذّ والذي أصبح جوهرة من جواهر الأدب العربيّ، مثلما كانَ إيذانا بميلاد أحد أعلام الفنّ القصصي والروائي في الوطن العربي رغم قلّة إنتاجه.

ما بين "أدباء معاصرون" وهو أوّلُ ما قرأتُ لرجاء النّقّاش، وكتاب "ملكة تبحث عن عريس" وهو آخر ما قرأته له، تَعدّدت مطالعاتي لكتبه ومقالاته التي تنوّعتْ تنوُّعاً رَحْباً وعميقاً بين قضايا الفكر والنقد الأدبي والمسرحي والسينمائي والمقالات الصّحفية، وكانَ في كلّ ميدان من هذه الميادين صوْتاً واثقَ النّبرة أسِراً ومتناغماً وعميقَ الوَقْع والتأثير، وصَانعاً من صُنّاع الرأي مُتَميّزاً وفريداً في أسلوبه ومنهجه واتّساع أفقه وصفاء فكْره وشفافية رؤاه.

قد يكون من المُتعذّر، في سياق هذه المقالة، أن نعرض لفكر هذا الكاتب والناقد اللامع والأثر الذي أحدثته كتاباته في حياتنا الأدبية والثقافية، لكنني سأتوقف فقط عند مَعْلَمَيْن من معالم نتاجه الأدبي والفكري يكشفان عن بَعض سماته الشخصية والأدبية معا. أوّلهما: هو كتابه "العقّاد بين اليمين واليسار" الذي يُعَدُّ إحدى فرائد عقده بل فرائد الثقافة العربية عموماً، ليسَ فقط لقيمته الأدبية والنقديّة ولا لمنهجه العلميّ الرّصين، وإنما أيضاً لتَجَرُّده ونزاهته وأمانته التاريخية والموضوعية في تقويمه لفكر العقّاد وأدبه وشعره ومواقفه السياسية والفكرية، وفي هذا السياق نرى كيف ترْفع رجاء النّقّاش فوقَ كلّ الحساسيات الشّخصية والخلاف الفكري والمنهجي بينه وبين العقّاد الذي اشتبك معَه في سجالات ومعارك أدبية ذاعَ صيتها على صفحات الجرائد والمَجلاّت. في كتابه هذا يعطي رجاء النقاش المثال والقدوة في التقويم الأمين والنقد الموضوعيّ لهذا العلَم البارز من أعلام الأدب العربيّ دون انتقاص من قدْره ومكانته أو افتئات على عطائه الأدبي أو تحريف لحقائق التّاريخ ووقائعه.

والمَعْلَمُ الثاني، في فكر وعطاء النّقّاش، الذي أودُّ التوقف عنده هو مجموعة مقالاته الأسبوعية التي نشرها في صحيفة الأهرام مع منتصف التسعينيّات وكانت أشبه باستراحة فارس تَمرّسَ بخبرات الحياة ومُعتَركاتها وبلغ أوْج نضوجه وحكمته، فراح يتأمّل، بهدوءٍ وصفاء نفس ونقاء سَريرة، مسيرةَ الحياة ودروسها المُستفادة. في هذه المجموعة من المقالات كان ثَمّة مراجعةٌ أمينة وشجاعة للنفس، ونَقْدٌ جسورٌ للذّات، وتقويمٌ جديد للمواقف والآراء في ضوء ما تزوّدَ به من وَعْي وعِلْم عَبْرَ مسيرة عُمره. إحدى هذه المقالات كانت بعنوان (الغَضَب) وفيها ينتقدُ الكاتب مساوئ الانسياق وراءَ انفعالات الغضب وكيف أنه هو نفسه كان يُعاني من هذا العَيْب الأخلاقي فخسرَ الكثير وطاشَتْ سِهامُه في مواقف عديدة فأصابت أبرياء، حتى استطاعَ أن يُبَرِّئَ ذاته على كبْح جماح النّفس والتّحلّي بالحلْم ورباطة الجأش واستحضار العقل والحِكْمة في مثل تلك المواقف.

وفي مقالة عن الشيخ المَراغي..وهو أحدُ أئمّة الأزهر الشريف اتُّهمَ من قبل بعض الكتاب والمؤرّخين بموالاة القصر الملكي. تصدّى رجاء النّقّاش لهذه الكتابات مُفنّداً إيّاها بسلامة المنطق وقوّة البيان ورُجْحان الحُجّة، داعياً إلى إنصاف هذا العالم الإسلاميّ الكبير.

من خلال كتابات رجاء النّقّاش كانت إطلالتنا الأولى على شعر المقاومة في فلسطين المحتلّة. فصارت أشعار محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد نجما بازغا من ليل النكبة وظلام الهزيمة، وزاداً يومياً نقتاتُ به ونتغنّى في الجامعات والمقاهي والمنتديات الأدبية.

ومن خلال كتاباته أعَدْنا النّظر في الكثير من مُسَلّمات الأدب والنقد التي تعلّمْناها وصارتْ بديهيّات نُرَدّدها دون مراجعة أو تحقيق، ليتَفَتّحَ وعْينا على حقائقَ جديدة أكثر إدهاشا وسِحْراً وتناغماً مع طبيعة الإبداع وروح العصْر.

المرّة الوحيدة التي التقيتُ فيها رجاء النّقّاش كانت عام ١٩٨٣ في مهرجان الأمّة ببغداد. أيّام كانَ العراق وطناً للإبداع وملتقى لكلّ المبدعين العرب. وقد وجدته كما تخيّلته تماماً من وَحْي كتاباته. جَمْع الأدب رَقيقَ الحَاشية جَليّ الفكر عميقَ الثقافة شديد الاعتداد بمواقفه وقناعاته الوطنية وحسّه القوميّ.

وها هو ذا يرحلُ عنّا بعد ثلاث سنوات من المكابدة مع المرض تحملها في صَبْر وثبات وتفاؤل وإيمان عميق ويقين لا يتزعزع.

رَحَلَ عنّا رجاء النّقّاش.. لكنه ترك لنا زاداً ثقافيّاً وسيرةَ حياة سوف تبقى في ضمائرنا وضمائر أجيال مُقبلة بقاءَ البذْرة في أصْل النّبات المُزْهر.

يَبْقى من رجاء النّقّاش أنه كان امتداداً لجيل عظيم من رُوّاد النهضة والتجديد في الثقافة العربيّة، وعَلَماً من أعلام الفكر والنقد والأدب، ورمزاً للمثقف الوطنيّ صادق الوطنية، أصيل الانتماء إلى عروبته وتراثه القوميّ وقضايا شعبه ووطنه وأمّته، وكانَ مثالاً للتّجرُّد والنزاهة والالتزام بالموضوعية والابتعاد عن الشّطط والمغالاة في كلّ كتاباته ومواقفه، وكانَ قيمةً عُليا للمثقف الواعي برسالته ودوره والمُلتزم بمبادئه وقناعاته مهما تعقّدت المسيرة وتفاقمت الصّعاب.

رجاء النقاش مع الابنودي

خصال رجاء النقاش

صبحي حديدي
كاتب لبناني

الدراسات الشكسبيرية في التأليف العربي نادرة شحيحة، لكي لا نقول إنها شبه منعدمة، وذلك بالرغم من توفّر معظم أعمال شكسبير الأساسية مترجمة إلى العربية، وأحيانا في أكثر من ترجمة واحدة. وقد يقول قائل إنّ هذه الحال الفقيرة في ميدان الدراسات تشمل أيضاً الغالبية الساحقة من كبار أدباء الغرب، فضلاً عن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وأنّ طور الخمسينيات والستينيات الذي شهد الاشتغال النشيط على الآداب والنظرية النقدية الغربية كان طفرة واحدة، عابرة واستثنائية.

ولهذا فإنّ من المبهج أن يصدر كتاب بعنوان "نساء شكسبير"، دار شرقيات. القاهرة، يتناول هذا الجانب الأساسي في تراث أديب لا تغيب المرأة أبداً عن مسرحياته وقصائده، حتى أنّ المرء لا يمكن أن يفكّر في شكسبير بمعزل عن شخصياته النسائية الخالدة. مبهج كذلك، أن يكون الكتاب بتوقيع الناقد المصري المخضرم رجاء النقاش، خصوصاً وأنّ هذا العمل يبرهن مرّة أخرى على أنّ اهتمامات الرجل ليست محلية مصرية أو عربية "عروبية" دائماً وأبداً!

والحال أنّ كتابات النقاش النقدية كانت، منذ الخمسينيات، علامة حيّة وحارّة على أمرَين:

١. إدارة الصراع (في جبهة الأدب) بين اليمين واليسار عموماً، وبين المدافعين عن عروبة مصر ودعاة انتمائها إلى أصول أخرى شعوبية. وفي هذا الصدد تندرج سجالاته ضدّ توفيق الحكيم ولويس عوض ومَن أسماهم بـ "الإنعزاليين"، ودفاعه عن طه حسين وأنور المعداوي، وتمييزه بين اتجاهات اليمين واليسار عند عباس محمود العقاد، وتشخيصه للظواهر السياسية وراء أزمة الثقافة المصرية.

٢. تقديم المواهب الأدبية الجديدة، والسباحة عكس التيّار في الدفاع عن حقّها في احتلال الموقع المناسب. وهكذا كان رجاء النقاش بين أوائل الذين قدّموا الروائي السوداني الطيّب صالح، فرحّب بروايته "موسم الهجرة إلى الشمال"، واعتبر أنّ صدور هذه الرواية يدل على أنّ الروائي المصري الكبير نجيب محفوظ لم يعد عقبة في وجه تطوّر الأسماء الشابة. كذلك قدّم النقاش لمجموعة أحمد عبد المعطي حجازي الأساسية "مدينة بلا قلب"، ١٩٥٨، وكان أوّل المبادرين إلى تقديم محمود درويش، وذلك حتى قبل أن يغادر درويش الأرض المحتلة، ورغم حساسية الحديث (آنذاك!) عن شاعر فلسطيني يحمل الجنسية الإسرائيلية.

وفي الجانب السجالي خاض النقاش عشرات المعارك دفاعاً عن قناعاته (ولعلّ هذا هو بعض السبب في إفراط الحماس لديه)، وخاض عشرات المعارك الأخرى دفاعاً عن الآخرين (سواء أكانوا من النقّاد أو الأدباء). وكان يصيب في معظم الأحيان، ويخطيء في أحيان أخرى، خصوصا حين يطغى التأويل السياسي للنصّ أو الإنتماء العقائدي لصاحب النصّ على الخصائص الفنية للنصّ ذاته. وفي الجانب العملي تولّى النقاش رئاسة تحرير دوريات عربية أساسية (مثل "الهلال" و"كتاب الهلال" الشهري، و"الدوحة" القطرية)، وكانت هذه المهامّ بمثابة اختبار عملي لمواقفه المتحازة إلى الحداثة والتجديد، وتسامحه مع النزعات التجريبية لدى الأدباء الشباب.

لكنّه كان ــ وما يزال في الواقع ــ شديد الميل إلى إسقاط السياسة (بمعناها المباشر والعقائدي والحزبي) على الظواهر الإبداعية، وإلى شطب جزء كبير من حقوق الإبداع إذا أخلّت هذه بحقوق السياسة. وأن تأتي ممارسة كهذه من ناقد كبير ومتمرّس ورائد أمر يتجاوز حدود العثرة، لأنه في الواقع ينمّ عن استعداد للتضحية باستقلالية العملية الإبداعية لصالح تكريس السياسة. ولعلّ جوهر هذا الموقف تختصره الكلمة التي نُشرت على الغلاف الأخير لكتاب النقّاش "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"، حيث جاء فيها: "وقد وقف المؤلف بوضوح وصراحة مع حركات التجديد الأصيلة ورموزها المختلفة، كما وقف ضدّ حركات التجديد المبنية على عداء حضاري وقومي للأمّة العربية واللغة العربية وأدابها. ولم يتردّد المؤلف في معارضة حركات التجديد القائمة على سوء النيّة القومية، والإستهانة بالتراث الحضاري العربي بهدف تمزيق العرب فكرياً وثقافياً ووجدانياً".

والحقّ أنّ أحداً لا يستطيع الزعم الأكيد بأنّ دعوة تجديدية ما في الأدب، هي في الآن ذاته حالة "عداء حضاري وقومي للأمّة العربية"، لأنّ تجدّد الأساليب والأشكال والمدارس ظاهرة إبداعية واجتماعية. ثقافية عميقة حتى إذا انطلقت من أساس سياسي أو فلسفي. وهكذا برهنت السنوات اللاحقة أنّ حركة التجديد التي قادت إلى تكريس قصيدة النثر في الشعر العربي منذ أواخر الخمسينيات لم تكن حركة سياسية قادها "شعراء أعضاء في الحزب السوري القومي الإجتماعي" وشجّعتها "أوساط الإستشراق الغربية"، بل هي حركة تجديد عميقة في المحتوى والأسلوب والشكل، بدليل أنها الإتجاه الأعمّ في الشعر العربي المعاصر، ويمارس كتابتها شعراء قوميون وماركسيون وإسلاميون!

وصدور "نساء شكسبير" مناسبة لتحيّة ناقد رائد يظلّ قدوة صالحة في ميدان ممارسة النقد التطبيقي، وفي الحرص على متابعة الظواهر الخلافية، وإثارة النقاش حولها، والتنبّه إلى الأصوات الجديدة والشابة، والمجازفة بتقديمها ووضعها ضمن سياقات المشهد الأدبي الأعرض. هي كذلك مناسبة نتذكّر فيها أنّ النقد العربي المعاصر استقال، إجمالاً، من هذه الخصال. الواجبات!

عن صحيفة المستقبل

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

انـــا وســـيـــزيـــف ورجـــــاء الـــنـــقـــاش

علي ماضي

العلاقة بين ثلاثتنا افتراضية لم تنشأ على ارض الواقع، وانما في بطون الكتب، تعرفت الى سيزيف عندما قرأت كتاب الدكتور رجاء النقاش تأملات في حياة الانسان في منتصف ثمانينات القرن المنصرم،حيث اشار فيه الى اسطورة سيزيف وكيف ان فينوس الهة الجمال لدى الاغريق عاقبته بحمل الصخرة كبيرة من سفح الجبل الى قمته، والتي كانت تسقط بفعل الجاذبية ليعاود حملها في اليوم التالي، فينوس لم تقصد اجهاد سيزيف جسديا لانه اله القوة كما تقول الاسطورة، ولكنها قصدت اجهاده بالعمل الروتيني اليومي الرتيب.

مشكلة الصخرة اخذت مني اياما للتفكير، ثم اهتديت الى: كان على سيزيف ان يسلك في كل يوم مسلكا جديدا من مسالك الجبل ليتحول من معاقب الى باحث في مسالكه.

تعلمت من هذه الاسطورة ان اصنع لنفسي هدفا،كلما احسست برتابة الحياة ووطأة روتينها، هدفا يضفي اليها شيئا من الحراك، ويمنحها غاية منشودة تستولي على اهتمامي بحسب ما تحتاجه من سنوات لانجازها.

في بداية التسعينات سعيت للحصول على درجة البكلوريوس في الاقتصاد من جامعة المستنصرية ولكن انتقال عملي من بغداد الى قاعدة البكر في بلد فضلا عن وطأة الحصار الاقتصادي حالا دون ذلك.

وفي ذات الوقت تعلمت كيف اعيد الحياة(تصليح وادامة) للمحركات الكهربائية، لتكون حرفة اضافة الى وظيفتي التي كان مرتبها لايكفي لمعيشة الاسبوع الاول من الشهر، وسعيي الى اتقان هذه الحرفة دفعني الى قراءة الكتب العلمية ذات الطابع العملي، ودفعني الى تعلم بناء دوائر السيطرة على المحركات، والتي كانت تعتمد المنطق في احكام قبضتها عليها، ثم دفعني شوقي لتعلم دوائر السيطرة الالكترونية الى دراسة الالكترونيك والتخصص بدوائر المنطق، فتعلمت ان المنطق يصلح للسيطرة،ولتنفيذ مخططات مسبقة و لا يصلح لتنمية الفكر الابداعي عند الانسان، فادركت سر اصرار رجال الدين على دراسة المنطق ومراعاة قوانينه لانهم لا ينشدون الابداع وانما التنفيذ والسيطرة من اجل المحافظة على ما لديهم.

واخيرا وليس اخرا حصولي على درجة البكلوريوس في العلوم التربوية والنفسية من جامعة واسط، وان كان التقدير الذي حصلت عليه لا يرضي طموحي الا ان الاصرار على اكمال الدراسة على الرغم من صعوبات التوفيق بين العمل ومتطلبات الاسرة اعده نجاحا بالنسبة لي.

وما زالت قائمة اهدافي مزدحمة بما علي تحقيقه في السنوات المقبلة. فلسفة العيش هذه، غلبت غرائز الحياة لدي على غرائز الموت،ونتج من ذلك توافق مع الذات ومع المجتمع ومن الطبيعي ان ينعكس كل ذلك ايجابيا على صحتي الجسمية.

الاعوام الاربعة نفسها التي مرت علي مرت على زملائي الاجهادات النفسية والبدنية نفسها.

بالنسبة لي تمكنت من اعادة صياغة المعادلة مع الزمن، فلم ادعه يمر كما يشاء، وهم اكتفوا، بالانتظار وقنعوا بان يكونوا ضحايا فينوس، انفتحت امامي مجالات اوسع لايجاد فرص عمل، اصبحت اكثر وعيا، وربما معدل ذكائي ارتفع قليلا وهم بقوا كما هم دونما تغير.

لـيـلـة فـي بـيـت رجـــاء الـنـقـاش

عباس بيضون
كاتب لبناني

لا اتذكر كثيراً، لكن رجاء النقاش لا يحتاج الى تذكيرات كثيرة ليحضر في البال «كان واحداً من لقاءات قليلة لكني اتذكر بيتا جميلاً» وليست وفيرة جداً بيوت الكتّاب المصريين التي توحي بالرخاء. صالة أنيقة ورجاء الوسيم مع زوجته وابنته الجميلتين وصهره النبيه والوسيم ايضاً، حلمي التوتي الرسام المعروف أنيقاً ومرحاً واكثر استرسالاً من لوحاته. سليم سحاب بهيئة المايسترو التي له لكن بتبسط وبدون طاووسية. مائدة كريمة ومرح ولطف، ليلة سعيدة في بيت سعيد، فيما بعد علمت ان الصهر اللامع اصيب بالسرطان وتوفي شاباً. علمت ان رجاء في مرض عضال، مع ذلك لم تنكسف هذه الليلة في ذاكرتي، ولن اشتبه ابدا بالسعادة التي صادفتها فيها. سيبقى كل هذا الجمال والمرح حاضرا وسيبقى رجاء وسيما ورقيقا، لن نسلم للموت كل شيء.

اول ما تعرفت به على رجاء النقاش كان مقدمته الطويلة لديوان احمد عبد المعطي حجازي الاول وربما الاجمل «مدينة بلا قلب" لا اذكر من هذه المقدمة الا انها كانت مليئة بالسياسة ولم يكن الديوان كذلك، فالواضح ان رجاء ذلك الحين لم يكن ليتصور شيئا بدون سياسة، ثم ان المقدمة نفسها كانت مضمومة الى الديوان كأنها شيء منه او كأنها تكمل البيان الذي فيه، ديوان حجازي هذا قال الشعر على نحو لم يكن مسبوقاً، قاله بجملة لا تهول ولا تفخم ولا تذهب الى الاقصى ولا تنشد، الارجح ان رجاء لاحظ جدة الشعر وطراوته لكنه شاء ان يضع ذلك في رصيد سياسة جديدة ايضا. ذلك الحين كان رجاء شيطان حجازي ويجمعهما قرب غريب من حزب لم ينغرس في مصر ولا كان له أرض فيها هو حزب البعث، ديوان حجازي كان اشهارا مركبا لتلك الصداقة ولذلك الاتجاه، بعدها غدا رجاء النقاش من طلائع الناصرية ولعب في الصحافة والنقد دوراً لم ينفصل كثيراً عن السلطة. لم ينتكس رجاء في عهد السادات، لقد واصل طريقا يصعب على من اختطه ان يحيد عنه، في هذا الازدواج بين السلطة والثقافة او في هذه السلطة الثقافية التي كانت تتحول بتحولات الظرف، كان رجاء من هذه الطبقة من مديري الثقافة او امراء الصحافة، وفي بلد مؤمم الصحافة والثقافة يصعب الابتعاد عن السلطة لكنها لا تدمغ الجميع بذات السمة، فقد كان رجاء محبوباً لانه في لطفه ودمائته تجاوز اسوار الموقع وبرودته وقساوته، لقد خالفه كثيرون في سياسته ولا بد من انهم قالوا فيها ما يدين وما لا يدين، لكن شيئا يتجاوز السياسة ويتجاوز الموقع كان يجعل في رجاء النقاش على الدوام شيئا من المثالي المتحمس الذي بدأ به شابا.

أيا كانت مسالك رجاء النقاش فإن زهوته ومدار حضوره كانا في الناصرية، كان هنا مبدأه وتربيته وأفق حياته، تكون حول عبد الناصر جيل من مثقفي مصر الشبان آنذاك. إذا كانت الناصرية قد باتت اليوم بعيدة وفي التاريخ، فإنها حاضرة في تكوين هذا الجيل ولا تزال لدى أفراده الذين غدوا كهولاً او شيوخاً، المرجع الروحي، ولا يزال سجالهم الاساسي معها، تاريخ هؤلاء مع الناصرية وبقاؤها فيهم وسجالهم في ما بعد معها وحضورها السري في نتاجهم او معركتهم ومن اجلها احيانا، وتنقيحهم او تبريرهم لها في ما بعد. كل هذا هو المجال الذي بقيت فيه الناصرية اكثر ما بقيت. المباركية، اذا جاز التعبير، بعيدة عن الناصرية وزخمها، لكن نتاجات ناصريي مصر الاوائل لا تزال تتتابع في الرواية وفي الأدب وفي السياسة، ولا نزال نشعر بأن السيرة الناصرية لكل هؤلاء لا تزال محركاً اساسياً.

بوفاة رجاء النقاش نفهم ان هذا الجيل يرحل، ومع رحيل آخره ستكون خاتمة سفرائنا الى الغيبة الناصرية الصغرى وسندخل في غيبة أكبر وقد تكون بلا نهاية.

عن السفير اللبنانية

رجـاء النقـاش ودوره فـي حركـة الثقافة العربية المعاصرة

رحم الله الأستاذ رجاء النقاش، الذي رحل عن هذه الدنيا، يوم ٩ شباط ٢٠٠٨، بعد صراع مرير مع مرض السرطان، فلقد خدم الرجل حركة الثقافة العربية المعاصرة، وبكل ألوانها وأنماطها، وتياراتها لكنه ظل محافظا على حسه الوطني، وتمسكه بشعوره القومي، وانتمائه الانساني التقدمي.. لم يسقط القلم من يده لحظة واحدة.. بل ظل يواكب توجهات الثقافة، وابداعات المثقفين، ويخضعها للنقد بقصد ابراز خلاصتها، وتقديم الخلاصات للقراء العرب وهي تضم ما يساعدهم على فهم حقائق الانسان، والمجتمع بكل يسر ووضوح، وقلما حظي كاتب، وناقد بكل هذا الاهتمام مثلما حظي النقاش، فالجميع من الشعراء،،الكتاب، والفنانين، والروائيين وضعوا له في عقولهم وقلوبهم مكانة طيبة يستحقها من دون أي شك.. ولعل صدق النقاش، وإخلاصه واحترامه لمهنته، وتقديسه لرسالته وراء ذلك.

ابراهيم خليل العلاف
باحث ومؤرخ

ولد رجاء النقاش في محافظة الدقهلية بجمهورية مصر العربية في أيلول- سبتمبر سنة ١٩٣٤ واسمه الكامل محمد رجاء عبد المؤمن النقاش وهو من عائلة عرفت باهتمامها بالأدب والثقافة. أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية، ودخل كلية الآداب بجامعة القاهرة وتخرج فيها بعد أن حصل على شهادة البكالوريوس في تخصص اللغة العربية وآدابها.. وقد انخرط بالعمل الصحفي، منذ بواكير حياته العملية، واتجه بشكل أساس إلى النقد الأدبي، حتى أن مجلات عديدة نشرت له، مقالاته الأولى أواخر الخمسينات من القرن الماضي وأوائل الستينات وتقف مجلة الآداب (البيروتية) في طليعة تلك المجلات..

عمل النقاش في (مجلة روز اليوسف)، المجلة العربية الساخرة، وتولى بين سنتي ١٩٦٩، ١٩٧١ مسؤولية رئاسة تحرير المجلة ذات التاريخ العريق، ونقصد بها (مجلة الهلال) التي صدر عددها الأول سنة ١٨٩٢، وكان له دور كبير في تطويرها وجعلها قادرة على رصد توجهات الحياة الثقافية في العالم، ومتغيراتها وتياراتها المختلفة. وبعدها انتقل ليعمل رئيسا لتحرير (مجلة الإذاعة والتلفزيون).. وقد سافر إلى دولة قطر وعين رئيسا لتحرير (مجلة الدوحة) التي صدرت (بين ١٩٨١ ولحين توقفها سنة ١٩٨٦)..و بعد عودته إلى القاهرة شغل منصب رئيس تحرير (مجلة الكواكب) (الفنية). وقبيل وفاته كان كاتبا متفرغا في جريدة الأهرام.

النقاش، ومن خلال كتاباته ودوره في إدارة وتحرير العديد من المجلات، يعد بنظر النقاد، قيمة وقامة أدبية وفكرية سامقة.. وتزداد هذه القيمة ويرتفع بنيان هذه القامة عندما يكون صاحبها إنسانا خيرا ونبيلا ومعطاء والى شيء من هذا القبيل أشار الشاعر الفلسطيني محمود درويش في حفل تكريم النقاش الذي نظمته نقابة الصحفيين المصريين مطلع عام ٢٠٠٨ حينما قال أن النقاش قام بدور كبير على صعيد تطوير الحياة الثقافية العربية من خلال اهتمامه بالموهوبين و المبدعين من الشباب منطلقا من حس عربي. أما الشاعر حلمي سالم فقال أن النقاش أدار كل المنابر الثقافية التي تولاها بحماسة لكل جديد في الإبداع حتى أنها كانت تتميز بالجدة والحيوية مع المحافظة على الأصالة والهوية القومية، وقد وصف نقيب الصحفيين المصريين الأستاذ مكرم محمد احمد النقاش بأنه علم من أعلام الصحافة والنقد العربيين على مدى أكثر من نصف قرن، وأشاد الدكتور رفعت السعيد بمجهود النقاش الثقافي والفكري وقال بأنه: ((ناقد مستنير يدافع عن العقل)) لكنه لم يفرط برومانسيته.. انه "رجل والرجال ليسوا بشهادة الميلاد بل بشهادة المواقف" وقد ظل طوال حياته ومسيرته النقدية ((مدافعا عن قيم الجمال والاستنارة ضد كل هو ما هو قبيح ومتخلف)).

أصدر رجاء النقاش عددا كبيرا من الكتب، كما كتب مئات المقالات والدراسات في الصحف والمجلات المصرية والعربية. ومن كتبه المنشورة ((ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء)) و ((محمود درويش.. شاعر الأرض المحتلة)) و (تأملات في الإنسان)، و(أبو القاسم الشابي..شاعر الحب والثورة) و (عباقرة ومجانين) و (شخصيات وتجارب) ، و(نساء شكسبير) و (مطالعات وتأملات) و (عباس محمود العقاد بين اليمين واليسار) و (شعراء عالميون) ، و(قصة روايتين) و (في حب نجيب محفوظ) و (ملكة تبحث عن عريس).

عد الشاعر محمود درويش، رجاء النقاش بأنه ذو دور فاعل في ((تطوير وعي المسؤولية وفي تعميق العلاقة بين حرية الشعر وشعر الحرية))، واستند في هذا التقييم على واقعة اهتمام النقاش بشعراء الأرض المحتلة / فلسطين ورفع العزلة عنهم، فمن خلال كتاباته لم يعد هؤلاء الشعراء ((معزولين عن محيطهم العربي)). وأضاف يقول: إن الشعراء الفلسطينيين وكل الموهوبين من الشباب مدينون للنقاش، لأنه لم يكف عن التبشير النبيل بمواهبهم وعن ((تحديث الحساسية الشعرية والدفاع عن الجديد الإبداعي في مناخ كان ممانعا للحداثة الشعرية، ومدينون لك لأنك ابن مصر البار وابن الثقافة العربية الذي لم تدفعه موجات النزعات الإقليمية الرائجة إلى الاعتذار عن عروبته الثقافية..))

لقد كان النقاش يرى ((أن الثقافة هي جامعة الدول العربية، وليس المبنى المقام على ضفة النيل الشرقية، لان الأدب هو القادر على جمع العالم العربي)).

تميز أسلوب النقاش، بأنه يستند إلى جهد متميز وتقصي الحقائق.. ولم يسع النقاش في كل كتاباته إلى فرض آرائه على القارئ وإنما كان يحرص على تقديم الحقائق والوقائع برشاقة ويسر تاركا للمتلقي أن يخلص منها إلى الرأي الذي يحبذه، لهذا فقد اتسمت كتاباته بالروح العلمية فضلا عن حرصه على تقديم المتعة للقارئ، وقد لجأ في كتاباته النقدية التي نشرها قبيل وفاته ببضع سنوات على إشراك قرائه في تفسير القصص والروايات التي يقدمها، وكان مصرا على تقديم تلك الآراء دون التعليق عليها، إذا اتفق أصحابها معه أو اختلفوا، فعلى سبيل المثال نشرت له جريدة الأهرام يوم ٢٧ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٢ مقالا نقديا بعنوان (رحلة مع الخوف)، والخوف هي القصة القصيرة التي كتبها نجيب محفوظ أوائل الستينات من القرن الماضي ونشرها فيما بعد في مجموعته (بيت سيء السمعة) سنة ١٩٦٥ وتدور القصة حول (عثمان ألجلالي) وهو أنموذج للانفراد بالقوة خطر على الجميع حتى على صاحبه وذهب قراءه مذاهب شتى في تفسير هذه القصة، لكنه أكد أن من واجبه كمثقف، أن يحرص على قدر كاف مما اسماه (الديموقراطية الأدبية القائمة على التنوع في وجهات النظر وقال إن عمل النقاد هو أن يساعد القارئ على إدراك وجهة نظر الكاتب، وله، أي الناقد، إن يوافق الكاتب أو يختلف معه، ولكن ليس له الحق أن يفرض على الكاتب وجهة نظره كناقد)).

ومع أن النقاش كان يرى بأن رجالات السياسة والفكر والأدب لهم مكانتهم إلا انه لم يتورع عن نقدهم إذا اقتضى الأمر فالعقاد مثلا في نظره ((احد الكبار الذين حملوا الأنوار إلى العقل العربي في القرن العشرين)) لكن نقد الأديب اللبناني مارون عبود لواحدة من قصائده يعد دقيقا، فالقصيدة ((هي فكرة جافة خالية من العاطفية وفيها صنعة ولكن ليس فيها فن، والصنعة هي التعبير عن المهارة. أما الفن فهو التعبير عن الشعور ونبضات القلب والتجربة الإنسانية)). وفي مقال له طريف عن الانتحار يتعرض لانتحار عبد المحسن السعد ون احد رؤساء الوزارات في العراق سنة ١٩٢٩ ويقول أن فكرة الانتحار بين السياسيين ورجال الحكم والسلطان معروف منذ قديم الزمان،ويحدث الانتحار عندما يواجه هذا السياسي الهزيمة ويشعر انه غير قادر على تحقيق أهدافه، خاصة عندما تكون الظروف المحيطة به قاسية.. وقد عبر السعد ون عن هذه الحقيقة عندما كتب في وصيته ((سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقا وشرفا، الأمة تنتظر الخدمة، الانكليز لا يوافقون.. ما أعظم هذه المصيبة انا الفدائي الأشد إخلاصا لوطني فقد كابدت أنواع الاحتقار وتحملت المذلة في سبيل هذه البقعة المباركة من الأرض التي عاش فيها آبائي وأجدادي)). ويعلق النقاش على الوصية فيقول أن السياسة حقا غاية، والعواطف الطيبة المثالية فيها قد تهتك صاحبها وتقضي عليه!!.

كرم النقاش مرات عديدة، وحظي بالاحترام وتربت على مقالاته أجيال وأجيال، وقد نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب بمصر سنة ٢٠٠٠. كما أصدرت مجلة الهلال عددا خاصا عنه، أسهم في تحريره عدد كبير من الأدباء والشعراء والمفكرين والمثقفين العرب،ورحم الله النقاش فقد كان ناقدا متميزا وصحفيا بارعا، وإنسانا طيبا، ومثقفا مؤمنا بفكرة التقدم والنهضة والتوحد العربي.

وداعاً رجاء النقاش

جابر عصفور

هـا هـو رجـاء النقاش يرحـل عنـا بعـد أن أوجـع قلوبنـا بمرضـه الطويـل الـذي ظـل يسرقـه، شيئـاً فشيئـاً، مـن محبيـه، إلى أن قرر المـوت أن يسرقه منا، تـاركاً في نفوسنا ألم الفقـد، ومرارة الحـزن، والشعور القاهر بالخسـارة، خصوصـاً في زمـن لا يـزال في حاجـة إلى أمثـال رجـاء النقاش، يمـلأون الحياة الثقافية من حولهم، بالحيوية الدافقة والاستنـارة التي تتسع بعقول القراء وتمتد إلى مـا لا نهاية برحابة أفق الثقافة التي تظل في حاجـة إلى العقـول التـي تقـود وتضيء وتشـع بقِيـم الحق والخـير والجمال في كل مـكان حلّت أو تحل فيـه، فرجاء النقاش آخر الوارثيـن لجيـل الموسوعيـين العظـام مـن أبنـاء ثـورة ١٩١٩، جيل طهحسـين والعقاد والمازني وبعدهما يحيي حقي وبقية النجوم الوضـاءة التي لا تزال الثقافة العربية مدينة لها بغرس وتعميق معنى الجامعة، والنظرة الشاملـة التـي تتعـدد أدوارهـا الثقافية في المجتمـع الذي تسعـى للانتقال بـه من وهاد الضـرورة إلى أعلى أفـاق الحرية ولذلك كان رجـاء النقاش دارسـاً وصحافيـاً ومحـرراً أدبيـاً ورئيـس تحريـر لمجلات عـدة، أحدث في كل منهـا مـا دفعها إلى المزيـد من الإنجاز والتقـدم والاستشـراف الطمـوح للمستقبل الخـلاق الـذي تديـن لـه بـه مجـلات رأس تحريرهـا، مثـل مجلـة «الكواكـب» التـي رأس تحريرهـا مـا بيـن عـام ١٩٦٥و١٩٩٦، ومجلـة «الهـلال" (١٩٦٦-١٩٧١) و «الإذاعة والتليفزيـون" (١٩٧١-١٩٧٢) وأضـف إلى ذلـك كله دور المحرر الأدبي الذي يؤديه رجاء بعـد تخرجـه في قسم اللغـة العربيـة بكلية الآداب، جامعـة القاهرة، عـام ١٩٥٦، مزاملاً الأعـلام الذيـن تخـرجوا معه أو قبله أو بعده، بسنـوات قليلة، من أبنـاء الجيـل الذي يضم صـلاح عبدالصبـور، وعز الديـن إسماعيل، وعبدالغفـار مـكاوي، وعبدالرحمـن فهمي، وفـاروق خورشيد، وأحمد كمـال زكي وهو جيـل نضـج وعبـه في ظـل الأفـكار القومية التـي أشاعها أمثال ساطع الحصري وتبناها البعـث ثـم النـاصرية بعدهـا وهـي أفكار لم تكن تحـول بـين التوجـه القومي والبسار في دائرة اللقاء التي كان أساسها الإيمان بالعدل الاجتمـاعي والعـداء للاستعمـار الـذي كان حارسـاً للرأسماليـة القائمة علـى الاستغلال وقد ظـل رجاء محافظـاً على فكـره القومي، منتسبـاً إليه، مؤمنـاً بـه في كل الأحوال، لا يتحـول عنه مهمـا كانت التغيـرات العاصفة التي ناوشت وهددت مسار الفكر القومي ولا أزال أذكر مقالاته في ذلك، خصوصاً تلك التي جمعها في كتابه «الانعزاليون في مصر" الذي كتبه ردّاً على دعاة انفصال مصر عن محيطها العربـي ولذلك كان رجاء النقاش متأثراً على نحـو خاص بأستاذنا عبدالعزيـز الأهواني الـذي كان أبـرز القوميـين بين أساتـذة قسم اللغة العربية الذي تخـرج فيه رجاء النقاش وبعد تسع سنـوات من تخرج فيـه كالهما، وبعـد تسع سنـوات من تخرج رجـاء على وجـه التحديد وابتـدأت معرفتي لـه بقراءة ما يكتب في «أخبار اليوم» ما بين ١٩٦١ و١٩٦٤ وكانت البدايـة أن أساتذتنا جميعـاً، سهير القلمـاوي، قـررّت معنـا في إحـدى محاضـرات «النقـد التطبيقي" إحدى قصائـد أحمد عبدالمعطي حجـازي من ديوانه الأول «مدينة بلا قلب" وكان الديوان قد صدر منـذ سنـوات معـدودة وكان تدريس سهير القلماوي، وقد كانت ملء سمع النقد الأدبي وبصره في تلك الأيام، حدثاً ترك أعمق الأثر في نفوسنا، وفي تذوقنا للشعر الجديد الذي بدأنا ننحاز إليه بفضلها وكانت النتيجة أننا اشترينـا الديوان الذي صدر عام ١٩٥٩ مع دراسـة بالغـة الأهميـة كتبها رجـاء النقاش الذي كانـت دراسته خير مقدمـة لشعر أحمد عبدالمعطي حجازي، وخير مدخل إلى الشعر الحـر عمومـاً وسرعان مـا اكتشفنـا أن كاتب هـذه المقدمة هـو رجاء النقاش الشاب الذي تخـرج قبلنا بتسع سنـوات، عام ١٩٥٦ على وجه التحديد.

ولا أزال أعتقـد، إلى اليـوم، أن هذه الدراسة الاستهلالية لديوان حجازي كانت، ولا تزال، إحـدى وثيقتـين رائدتـين في مجـال تبرير الشعر الحر وتحليله. أما المقدمة الثانية، فقد كتبها بدر الديب لديـوان صلاح عبدالصبور الأول «الناس في بـلادي» الـذي صـدر عـن «دار الآداب" البيروتية في مطلع ١٩٥٧، قبل صـدور ديوان حجـازي بعامـين ويعني ذلك أنني قرأت ديوان صـلاح عبدالصبور الأول بعـد أن قرأت حجـازي الذي أكملت ديوانه الأول بعـد أن قـرأت دراسـة رجـاء قـراءة الطالب الـذي يريد أن يفهـم ويتعلم وينحاز إلى قضيـة الشعر الحـر التـي أصبحت أهم قضايا التجديد الأدبي لأبناء جيلي.

وقد كانت الدراسة التمهيدية التي كتبها رجاء لديوان حجازي هي البداية التي دفعتني إلى السعـي وراء قراءة مـا يكتبه في النقد الأدبي وكانـت البدايـة في جريـدة «أخبـار اليوم»، التي كان يكتـب لها مقـالاً أسبوعيـاً في النقد الأدبـي وكان، أيامهـا، منعمـاً، قبـل السنة السابقـة علـى تخرجـي بكتابه «مقـالات عن العـالم الروائـي عنـد نجيـب محفوظ" الذي كان قد استقر على عرش الرواية العربية من دون منازع، وانهالت عليه مقالات يحيي حقي ورمسيس عوض وعبدالقـادر القط وسهير القلمـاوي وأحمـد عباس صالـح ومحمـد مندور وغيرهم من كبار النقاد في الستينات مـن القرن الماضي، ولكن رجـاء النقاش أثر أن يـرى روايـات نجيـب محفـوظ بعدسـة نقدية مغايرة، فاكتشـف جوانب لم يكتشفها أساتذتـه، وكان لمـا اكتشفـه أبلـغ الأثـر في إعجابي به بوصفه ناقداً أدبياً واعداً، مرهف الإحسـاس، فقـدكان نقـده لا يقـل أهمية ولا قيمـة عن نقد أساتذته، بـل كان يضيف إليهم ما تهديه إليه بصيرته النقدية النافذة وأذكر، علـى سبيل المثـال ما أجمـع عليـه النقاد في تناولهم روايـة «الطريق" الشهيرة، حيث رأى أكثر النقـاد في بطلتها إلهام نموذجاً للصفاء الروحـي المقـرون بالطريـق الهـادي للابـن الضـال، كي يصل إلى أبيـه الرمزي الحقيقة المطلقة وهناك يجـد، لديه وبواسطته، الأمن والسـلام والكرامة، على عكس كريمة التي رأوهـا تجسيـداً لعـالم الحواس والغرائز الغـارق فيهـا الابـن صابـر وللاسـم مغزاه، فيعجزعـن الوصـول إلى فيء أبيـه وصدره الحنون، فـإذا برجاء النقاش يقلب التفسير، ويجعـل من كريمة موئل الروح التي لا نصل إليهـا إلا بعـد أن نصل إلى قـرارة القرار من الحسـية التـي ليس بعدها سـوى الروح، وذلك بمنطق له بعد صوفي بمعنى أو بآخر.

هكـذا انتقلت مـع كتابـات رجاء، قارئـاً، من الشعر إلى الروايـة، ومن الروايـة إلى المسرح ومضيت متابعاً له، مستمتعـاً بما يكتب إلى أن انتهـت الحقبـة الناصريـة، واضطر إلى العمـل في قطر، رئيساً لتحرير مجلة الدوحة واستطعـت خـلال هـذه الفتـرة أن أصـوغ صـورة لنقده الأدبـي في ذهنـي، خصوصـا بعـد أن استهـوانـي الجانـب التنظيـري، أو النقـد الشارح، للنقـد وانتهيـت إلى أن نقده يتميز بسمات أساسية عدة.

أولهـا أنـه نقـد متطور، يفيد من التطورات الأخـيرة لنظرية التعبير في ذلك الوقت، وأن العمليـة النقديـة تبدأ عنـده منذ اللحظة التي يتأثـر فيها وجدانه بالعمـل المقروء، فيسعى إلى فهمه وتفسيره، ومن ثم تقييمه وما بين الفهم والتفسير، يظل مشغولاً بجمع القرائن الدالة التـي يجدها في العمـل، ويصل بينها لتصـور معنـاه، قبل تقـديم هـذا المعنى إلى القـارئ في هيئـة تفسير للنص وهي عملية تقضـي إلى تحديد القيمة الموجهة للعمل أو نفيهـا عنه وهو في ذلك كله لم يكن يتطلع إلى إجراءات معقدة مثل البنيوية التي نفر منها، وما جاء بعدها، مثل التفكيك وغيره من البدع التي كان يمزح معي، مبرراً موقفهمنها.

وثانيتها أنه ظل يرى في الناقد قارئاً خبيراً، اكتسب تجـارب عميقـة مـن طـول معاشرة النصـوص الأدبيـة والغـوص فيهـا، ولذلك جعـل دور الناقـد أشبه بـدور الوسيط الذي يجمع بـين طرفـين يحبهمـا، النـص الأدبي والقـارئ، مؤكداً هذا البعـد بنقده التطبيقي الـذي يسعـى إلى إيصـال معنـى النص إلى القـارئ في بساطـة أسـرة، بعيداً مـن التقعـر أو التقعيـد، أو التنظـير المتعالي، أو التقليـد الساذج لنقد آخـر، أجنبي على وجه الخصـوص وكانـت نصوصـه النقديـة، في معظمهـا، رسائل محببـة إلى القارئ عن نص محبوب، فقد ظل رجـاء أميل إلى الكتابة عن النصـوص التـي يحبهـا، والتي يهتز بها، ولم يكتب عـن النصـوص التي نفر منهـا أو رآها عديمة القيمة.

وثالثتهـا أنـه كان يتمتـع ببصيـرة نقديـة، تجعله قادراً على اكتشـاف الجوهر الصافي في النصـوص، قبـل أن يكتشفهـا الآخرون، ولذلك كان هو السباق في الكشف عن جوهر شعـر أحمـد عبدالمعطـي حجـازي، ممهداً الطريق أمام من جـاء بعده من نقاد حجازي وقـد جـاء بعـد حجـازي بسنـوات اكتشافه الطيـب صالح الذي لم يكـن هناك أحد يعرف عنـه على امتـداد العالم العربي، فـإذا برجاء يمسـح التراب وغبار عدم المعرفة عن رائعته «موسم الهجـرة إلى الشمال" مؤكداً ظهور عبقرية فريدة في الرواية العربية وكان نقده لرواية الطيب صالح بدايـة لاهتمام متزايد بهذا الروائـي الـذي مـا كان العـالم النقدي ليحتفـل به إلا بعـد أن أزاح رجاء الستار عن تفـرد إبداعـه الروائـي وقل الأمـر نفسه عن شعر محمود درويش وشعر شعراء المقاومة ثانيـاً، وكانـت النتيجـة كتابـه عـن محمود درويـش الصـادر عـن «دار الهلال" القاهـرة وكان ثمـرة اكتشافـه محمـود درويش الذي كان لا يـزال مجهـولاً بالنسبـة إلى النشـاط النقـدي الأدبـي والذائقـة الشعريـة عمومـاً ولذلـك فليس من المبالغـة القول إن نقد رجاء النقاش التعريفـي والتفسـيري والتقييمي لمحمـود درويش، وبعـده شعـراء المقاومة، بمثابة الضوء الذي وضـع درويش وأقرانه في الدائـرة التـي سرعـان مـا جذبت إليهـا الجميع، فتسابق في اكتشافها وتناولها، إلى درجة أنها أصبحت «موضة».

ورابعتهـا أنه كان يؤمـن أن أي نوع أدبي لا يمكـن فهمه إلا في علاقته بغيره من الأنواع، فـالأدب كيـان متكامل، تتبـادل أنواعه التأثر والتأثير، وتقـوم بالعملية نفسها مع الفنون التي تتجـاوب إبداعاتها وتتراسل على نحو لا يمايـز بينها إلا بنوعيـة الأداة التي تقترن بطبيعـة الفعل التعبـيري للإبداع من ناحية، وطبيعـة الموضوع في علاقتـه بالمتلقي الذي يتلقـاه من ناحيـة مقابلـة ولذلـك كان رجاء يكتشـف عمليـات التراسـل بـين النصوص الأدبيـة، وبينهـا والأعمـال الإبداعيـة في الدوائـر المتسعـة مـن عمليـات الاستقبـال والتلقي.

وخامستهـا أنـه ظـل علـى إيمانـه في عملية التقييـم المرتبطة بالتفسير أن للأدب وظيفة إنسانية، تجـاوز لغتها إلى غيرها من لغات العـالم، وأن الغـوص إلى قـرارة القـرار الإنسـاني مـن المحليـة هـو الطريـق إلى العالمية، وأن الأديب المؤثر حقـاً هو الأديب الـذي يتميز إلى جانب عمق مشاعره وصدق إحساسه بحرصه على التواصل مع قرائه، والوصول إلى أوسع دائرة من المتلقين، غير ناس أنه ينتسب إلى مجتمعات تغلب عليها، بل تتزايد، الأمية ولذلك ظل نافراً من ما رأى فيه تعقيدا مسرفـا في الرمزية لا السريالية، مؤثـراً الوضـوح الأبولوني على الغموض أو الجنـون الديونيسي، فكان أميـل إلى حجازيوصلاح عبدالصبور ومحمود درويش في مواجهـة أدونيس وغيـره مـن شعـراء الحداثـة ذات الجذور الفرنسية التي كانت، ولا تزال، مختلفـة كل الاختلاف عن الحداثة التي ترجع إلى جذور أنكلوسكسونية.

وكان البعـد الفنـي في هـذا الجانـب الأخير الوجـه الآخـر مـن البعـد القومـي، فقـد ظل نفـوره مـن أدونيـس نابعـاً مـن تصـوره أن شعـره تجسيـد لرؤيـة الحـزب القومي السوري للعـالم، واصفـاً إياها بأنهـا رؤية فينيقية غير عربية، وأن إبداعه غريب الوجه واليد واللسان للقارئ العربي ولذلك، أيضاً، ظل أقـرب إلى شعر أحمد حجـازي القومي، نافـراً من تحولاته الأخيرة التـي انقلب فيها على القوميـة والناصرية وبالقدر نفسه، ظل أقرب وجدانيـاً إلى شعـر صلاح عبدالصبور الـذي كان حريصـا على استكتابه في الدوحة القطريـة، حـين كان رئيـس تحريرهـا، كمـا ظـل أقرب إلى تحولات صـلاح الشعرية، في القصائـد الغنائية والمسـرح الشعري، أعني التحـولات التـي ظلـت أقـرب إلى الوضوح الأبولـوني منهـا إلى الغموض والجمـود الديونيسي، فشعر صلاح شعر من «كان يريد أن يرى الجمال في النظام/ وأن يرى النظام في الفوضـى»، وهمـا سطـران يصوغان في إيجاز بالغ، مذهـب رجاء النقاش في الحياة والفن.

وليس من المصادفة، والأمر كذلك، أن تتوثق العلاقـة الإنسانية بـين صـلاح عبدالصبور ورجـاء النقاش، فقد كان كلاهما بالغ التقدير للآخر، كما ظل كلاهما، ويا للمفارقة، منطويا على جـرح لم يندمـل، وندم لم يكـن له علاج نـاجـع، فمـا أكـثر مـا كان يحدثنـي كلاهما، بعيـداً مـن الآخـر، وفي لحظـات استرجاع التاريـخ الماضـي، عـن الأسـف البالـغ لأن كليهما غـرق في الرمال المتحركـة للصحافة، فأخـذ من كل شـيء بطرف، وخاض معارك خاسـرة، وفرض عليه ما لم يكـن يميل إليه، فانشغـل عـن التفرغ اللازم للبحـث العلمي الهـادئ طويـل النفس، ونسـي حلمه القديم بالاستمرار في الطريـق الأكاديمي، لكن وأه مـن قسوتها «لكننا»: «لأنها تقول في حروفها الملفوفة المشتبكة/ بأننا نتكر ما خلفت الأيام في نفوسنا/ نود لو نخلعه/ نود لو ننساه».

ولكن، وليس أه مـن قسوتها هذه المرة، على الأقـل في نظـري، فقد حقـق كلاهمـا إنجازاً يدعـو إلى الفخـار، وأضاف كيفيـاً، وعميقاً، في مجالـه النوعي، وكلاهما أثـر، ولا يزال، يؤثـر في أجيال متتابعـة، وكلاهما انطوى، في إنجـازه وإضافتـه، على إيمـان عميق بالإنسانيـة وجعل مـن ممارسـته الإبداعية والنقديـة منـارة تستضيـء بهـا الأجيال المتعاقبـة، ويستهـدي بها وطنـه في الطريق الشـاق للانتقـال من شـروط الضـرورة إلى آفـاق الحريـة، ولذلـك سيبقى منهمـا الكثير للتاريـخ، وسيظل فقدهمـا جرحـاً عميقـاً، غائـراً، لا يندمل في نفسي، وحزنـاً لا يفني ولا يتبـدد، فقـد كان كلاهمـا صديقـاً حميما، وأخـاً كبيراً راعياً، وزميـلاً سابقاً في القسم الـذي أنتسب فيـه، مثلهمـا، إلى تقاليد طه حسين الجذرية، العقلانية التي استمرت في تلامذته المباشرين، وانتقلت منهم إلى صلاح ورجـاء، ومنهمـا معـاً إلي، من ينـزل منهما منزلـة الأخ الصغيـر الـذي أدركتـه، مثلهما، حرفـة الأدب فوداعـا يا رجاء، يـا شبيهي، يا أخي.

عن مجلة العربي الكويتية

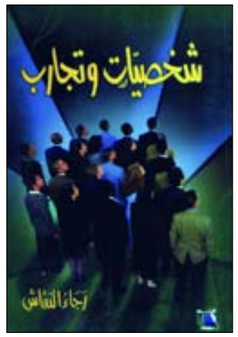

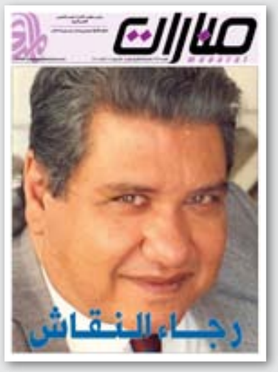

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

اعداد/ منارات

ولد محمد رجاء عبد المؤمن النقاش في سبتمبر أيلول ١٩٣٤ بمحافظة الدقهلية بشمال مصر وتخرج في قسم اللغة العربية بكلية الاداب بجامعة القاهرة ١٩٥٦ وقبل تخرجه اتجه الى النقد الادبي وعرف بدراساته التي كان تنشر آنذاك في مجلة (الآداب) البيروتية.

وبدأ النقاش رحلته مع الصحافة في مجلة روز اليوسف عام ١٩٥٩ ثم تولى بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧١ رئاسة تحرير مجلة (الهلال) وهي من أهم وأقدم المجلات الثقافية العربية.

انتقل عام ١٩٧١ ليعملَ رئيساً لتحرير مجلة (الاذاعة والتلفزيون) وجعل منها مطبوعة ذات توجهثقافي حيث نشر رواية (المرايا) لنجيب محفوظ مسلسلة قبل صدورها في كتاب.

وتوجه إلى قَطَر كمدير لتحرير صحيفة (الراية) ثم تولى رئاسة تحرير مجلة (الدوحة) منذ تأسيسها عام ١٩٨١ حتى إغلاقها عام ١٩٨٦. وعاد النقاش الى مصر كاتباً بمجلة "المصور" في نهاية ثمانينات القرن الماضي ثم تولى رئاسة تحرير مجلة (الكواكب) في التسعينات وفي السنوات الاخيرة أصبح كاتباً متفرغاً بصحيفة الاهرام.

من كتبه النقدية (ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء) و/ أبو القاسم الشابي.. شاعر الحب والثورة/ و/عباقرة ومجانين/ و/نساء شكسبير/ و/عباس العقاد بين اليمين واليسار/ و/قصة روايتين/ وهو دراسة نقدية فكرية مقارنة لروايتي (ذاكرة الجسد) للجزائرية أحلام مستغانمي و/وليمة لاعشاب البحر/ للسوري حيدر حيدر.

وبرز النقاش منذ كان في مطلع العشرينيات ناقدا يعبر من خلاله الادباء العرب الى الحياة الادبية وقدم عددا من أبرز المبدعين الذين يكبره بعضهم سنا ومنهم الروائي السوداني الطيب صالح الذي أعاد النقاش اكتشاف روايته الشهيرة (موسم الهجرة الى الشمال) والشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي الذي كتب له مقدمة ديوانه الاول (مدينة بلا قلب).

ورجاء النقاش يُعتبر من أهم النقاد العرب الذينَ عرَّفوا العالم العربي بالأدب الفلسطيني، وخاصة أشعار محمود درويش وسميح القاسم، ودافعَ عن هذا الأدب بشراسة في الوقت الذي حاول البعض التكّر لهذا الأدب والتقليل من شأنه. وأطلق على ابنه اسم "سميح" تيمُّناً بصديقه الشاعر سميح القاسم.

ونال النقاش جائزة الدولة التقديرية بمصر عام ٢٠٠٠.

وكرم النقاش في يناير كانون الثاني ٢٠٠٧ في حفل بنقابة الصحفيين بالقاهرة حيث نال درع النقابة ودرع مؤسسة (دار الهلال) ودرع حزب التجمع.

وينتمي النقاش الى أسرة ضمت مثقفين بارزين فكان أخوه الراحل وحيد النقاش مترجماً وناقداً وأخوه فكري النقاش مؤلفاً مسرحياً وتولت أخته الناقدة فريدة النقاش رئاسة تحرير مجلة (أدب ونقد) لنحو عشرين عاماً ثم أصبحت منذ نهاية ٢٠٠٦ رئيسة تحرير صحيفة (الأهالي) لسان حال حزب التجمع اليساري.

غيّبَ الموت رجاء النقاش يوم الجمعة ٢٠٠٨/٢/٨ بعدَ صراع مع مرض السرطان، وبهذا تكون الساحة الأدبية العربية قد خسرت ناقداً من أهم النقاد ومثقفاً واعياً من الدرجة الأولى.